

رسائل من زفاقستان

بقلم : الدكتور ابراهيم عبده

رسائل من نفاقستان

بقلم

الدكتور ابراهيم عبده

١٩٧٤

مؤسسة سجل العرب

٢٦ شارع شريف — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فرغت من هذا الكتاب فى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ ، وتهيأت لطبعه ، فإذا فى يوم مشرق وهو يوم ٦ أكتوبر الماضى علمت بأن قواتنا المسلحة من الإخوة والأبناء قد بدءوا تحرير الأرض .....

وما كان يليق أن يعلو فى الأيام اللاحقة على جهاد المجاهدين صوت على صوت المعركة .

واليوم ونحن على خطى النصر سائرون ، فإن صدور هذا الكتاب يواكب المعانى الرفيعة التى تؤكدها دماء الشهداء من أحرار بلادنا .

١٥ فبراير ١٩٧٤ ابراهيم عبده

يحكى هـذا الـكتاب،

قصـــة

الذين نافقــوا فنفقــوا،

كما تنفق الحميــر • • • •

الإهـــــداء

الى ابنتى رندة

ريحانة حياتى ، ونور قلبى ، ومن أقبلت على الدنيا فأشرقت دنياى والتى تخفف ابتســامتها من ابتلاء الزمن ..

يوم الحشر

فجأة وبلا مقدمات ، نعى الناعى « مير » البلاد ، وسيد الرجال ، الذى كان إذا أشار للنجم أن يهوى هوى ... وإذا أمر بالعتل التافه أن يصعد إلى السماء صعد ...

مات « المير » الخطير الذى غير المفاهيم ، وأعلى بهامات وأسفل بهامات ...

وكأنه يوم الحشر .

فقد جاءت الملايين من كل فج عميق، وأقبلت من كل صوب وحدب، من أعماق الريف والحضر . تلهث حائرة ، فإن « المير » الخطير قد أنبأهم فيما أنبأهم من وعود بأنه سيعيش لهم حتى يبلغوا كل أمانيهم ، وقد صدق المير فى كثير من وعوده على مدى جيل من وجوده ، فلما جاء نعيه بغتة دارت رءوسهم فلم يصدقوا أنه مات ...

فلما ألح الواقع عليهم، وثابوا إلى رشدهم ، وأفاقوا من غيبوبتهم، تذكروا أن الموت حق ، فهُرعوا ليشاركوا فى وداع « المير» القادر الملهم ، الذى أنقذ الفلاح من ذله وجوعه ، وسمـــا بالعامل فقضى على بؤسه وشقائه ، وجعل دنيا « نِفَا قِسْتَان » دنيا العمال والفلاحين .

لو كان قلبي من حديد أو حجر ، لتفطر للوعة الملايين وهى تذرف دموعها الغزيرة على سيد العباد ونبض البلاد ، ولو أضيفت دموعهم إلى نهرهم العريض ، لفاض نهرهم العريض وأغرق البلاد .

فوق آلاف الأشجار التى زرعت وسط أفاريز الشوارع ، تعلق الألوف من العمال بأغصانها الكثيرة ليشاهدوا موكب الوداع ، وكان بعضهم حفاة الأقدام تشققت بطونها من الحفا، وكان بعضهم رث الثياب ، قد عبث بها ريح الزمن ، وكانوا ينتحبون على « المير » الذى كان ظله لهم نعم الغطاء ونعم الكساء ! .

وقد هزتنى تلك الفلاحة وهى على طبيعتها ، تقف على إفريز الشارع العريض ، وفى يدها لقمة جافة ووعاء صغــير يسبح الدود فى مِشِّه ، وتحت إبطها حزمة من الجَمْضِيض، جاءت من أعماق الريف تبكى «المير» العادل الذى قضى على الإقطاع ووهب الأرض للفلاحين .

وانتظمت جموع أخرى فى موكب « نفاقستان » التى خرجت كلها باكية منتحبة .

كان من بينها ملوك وأمراء ورؤساء خفوا إلى تفاقستان حزانى سواء كان حزنهم من قلوبهم ، أو رسمه النفاق على وجوههم .

وكانت النساء يصرخن ويلطمن الوجوه ، وكان الرجال ينتحبون ويشقون الثياب ، وبكى الشعب كله حتى تحرقت مآقيه من البكاء . . .

لقد كانت محنة أمة هزت هذا الرجل الذى عاش فى «تفاقستان» دهراً طويلا لا يجرؤ على تسجيل ما رآه ، أو يكتب فيه حرفا لأصدقائه ، سواء المقيمون منهم فى «شِقَارِقِسْتَان» أو فى «تَوْرِيطِسْتان» أو فى «وَرْدِسْتان» أو فى «إسلامستان» أو فى «خَبَلِسْتان» أو فى غيرها من بلدان ...

وعاش الرجل بعد وفاة «المير» فترة من الزمن يملؤه الرعب الذى عاش فيه أصحاب الأقلام الحرة والأفكار المنيرة المستنيرة .

كانت موجة الرعب تملأ كل قلب وتغمر كل وجدان ، فكان الرجل يخشى أن تفلت منه قالة أو تصدر عنه حركة تفسر على النحو الذى كانت تفسر به القالة أو الحركة فى دهره الطويل الذى عاشه فى تفاقستان .

ثم جاء «مير» جديد ، وأعلن للناس أنهم أمة حرة فى دولة حرة .

ثم أمر بتصفية المعتقلات والسجون ...

ثم قال ، إن شعبى سيحيا منذ اليوم فى إطار من سيادة القانون ...

ثم أمر بوقف التجسس والتصنت ، ومزق أوراق التلصص ، وحرق أفلام الخزى والعار ، وحطم أدوات التعذيب والإرهاب ...

ثم دعا الناس إلى أن ينفضوا ما بأنفسهم ، وأن يقولوا مايريدون ، ويكتبوا ما يشاءون ، ولا عليهم من وزير الشرطة «شَعوَرْيان» أو وزير القصر «سَمشَرْيان» ...

وفرح « صاحبنا » الذى عاش ثلث عمره مقصوف القلم ، لا يمسك به سواء كان حبراً ، أو جافاً ، أو رصاصا ...

لقد نسى شكل القلم ، وحجم القرطاس ، وهـــو رجل أديب ومؤرخ عاش معظم أيامه فى نفاقستان ، وكان كل ما يرجوه أن يسجل الأيام التى يحياها فى رسائل يبعث بها إلى أصدقائه فى شقاقستان أو توريطستان أو وردستان أو إسلامستان ، بيد أنه كان فى ذعر أن تفض رسائله عند أحد الوزيرين « سمشريان أو شعوريان » فيمجو الجن الأحمر عن مكانه ، إذ كان جزاء الكلمة الحرة إجراءات تزرى بإجراءات العصور الوسطى ، وتصفر حيالها عقوبة الرمى فى الجب أو الإعدام بالخازوق ...

لقد جاءهم « مير » من أنفسهم ، وأنفسهم — فى الحق — مفطورة على الحب والخير ، وما كان لنفاقستان أن تعيش كل أيامها فى ذعر وخوف ، على النحو الذى عاشه « صاحبنا » وأقرانه قرابة عشرين عاما ، ثم بدأ يكتب رسائله ، وإن كان يكتب فى تحرز وحيطة ، فلا يزال فى فَرَق من الأفق القريب الملىء بالرعود والعواصف ، وما كان يحمل هذا الأفق فى طياته من عذاب ...

إنه يكتب بلا ترتيب ، ودون التزام بتواريخ الأحداث ، ودون أن يرتبط فى أى رسالة بموضوع واحد ، فكل ما يعنّ له من وقائع شاهدها أو سمع بها سيسجلها فى رسائله ...

إنه نصف أديب ، ونصف مؤرخ ، ونصف مجنون أيضاً ...

إنه يجرب ...

إن رسائله مغلقة وهو يظن أنها اليوم لا تخضع لرقيب ...

فليكتب ويجرب ...

تفاقستان فى ١٦ مايو

عزيزى تِعشيّان

عشرون عاماً لم أكتب لك ، ولم أتلق منك رسالة تبصرنى بالحال فى « شقاقستان» وكم أنا مشوق إلى أخبار شقاقستان !

قلقى عليك كثير ، فإن الصحف هنا قد نشرت فى الأعوام الأخيرة روايات شتى عن أحداث شقاقستان ، مما يثير الفزع والخوف الشديد .

وإنى لأتخيل فرحتك وأنت تفض رسالتى وهى بكر لم يعبث بها فى الطريق أحد ! فإن القوم هنا قد بدءوا يعودون إلى طبيعتهم السمحة بعد سنوات من الانغلاق وسوء الفهم والتقدير ، فلم تعد هناك رقابة على البرق أو الهاتف أو البريد . .

عاد القوم إلى طبعهم حيث برأهم الله على المودة والمعروف ، خلوا من الضغائن والعقد التى أرادوها لهم ، فخيب الله رجاءهم ، ورد علينا سيرتنا المأثورة عنا خلال آلاف السنين .

لقد انقطعت مراسلاتنا منذ قامت الثورة هنا ، تلك الثورة التى فجرها — فى رأيى — من يحكم تفاقستان اليوم ، لأنه هو الذى أذاع بيان قائدها ، ولو قدر لهذه الثورة أن تفشل لتنصل منها القائمون بها أو الذين رتبوا لها حيث كانوا يومئذ يختفون تحت الأرض ، وبقى من يحكم تفاقستان الآن وقائده وحدهما فى الميدان ولطارت رأساهما فى أكبر ميدان !! . .

وأرجو أن تعى ما تنطوى عليه رسائلى ، فإنى وإن لم أرض عن كل ما صنعته هذه الثورة ، فأنا بطبعى من الثوار ، بل أنا ثائر قبل أن يولد معظم هؤلاء الثوار ...

لقد كانت تقلقنى تلك المفارقات التى تؤرق حياة الوطن وتؤذيه ، ولا يرضاها التطور الذى مس الدنيا كلها وبقيت نفاقستان وحدها لا تريد أن تتطور ، يسوس أمورها ملك خلا عقله من الفهم ، ونضب قلبه من الحب ، ومضى يحارب أحرارها بغباء حتى ضاق الثوار فغامروا بثورتهم فى ليلة من ليالى الصيف ، وصحا الناس على بيان الرجل الذى يحكم نفاقستان اليوم ، واطمأن الناس إلى ثورتهم ، فمن أذاع البيان كان معروفاً بين جماعات الأحرار ، ومن وقعه كانت رتبته وصيته وشجاعته فى معركته مع الملك خير ضمان .

لا أستطيع أن أصور لكَ غبطة الناس وسعادتهم بهذا التغيير الجذرى لحياة نفاقستان الذى طرأ فى الشهور التالية ، فقد صدرت قرارات ضخمة ، كان لها فى حياة البلاد آثار ضخمة ، وكان أولها قانون يحدد ملكية الأرض المزروعة وهو أعظم القوانين فى تاريخ نفاقستان .

كانت الأرض المزروعة يملكها الملك وأمراء بيته ، وقلة من المواطنين ، وإن كان بعض هؤلاء المواطنين قد تملك هذه الأرض بوراً فأحسن إليها بجهده وماله الذى جمعه بعرق الجبين ، فأحالها إلى قطعة من جنان ، لذلك شابَ هذا العمل العظيم إحساس بالظلم مرّ

وثقيل ، فإن مصادرة أرض الملك وأسرته أمر مفهوم ، فقد سطت عليها الأسرة الحاكمة من أجيال سحيقة ، وانتزعتها من أصحابها بالقسر ، وحازتها من غير حق ، ولكن مصادرة أرض الأحرار المجاهدين أمر لا يقره عرف ولا دين .

لقد كان أسلم طريق لتطبيق هذا القانون ، أن يُنص على أنه يحظر على أي مواطن أن يملك من الأرض — بعد عشر سنوات — أكثر من خمسين فداناً ، ثم تفرض في الوقت نفسه ضرائب باهظة متصاعدة على هذه الأرض حتى يتعجل أصحابها التخلص منها ، وبذلك يحقق الثوار هدفهم من هذا القانون العظيم .

لعل هذا الأسلوب كان من شأنه أن نتفادى الهزة الاقتصادية ، وإشاعة الكراهية في نفوس أسر المالكين لأرضهم ، وإتاحة فسحة من الوقت يوزع فيها أصحاب الأرض أراضيهم بالبيع أو بالهبة ، وبهذا الأسلوب — مع تطور الزمن — ما كان لصاحب أرض أن يملك من الأرض شيئاً ...

وكانت غلطة في التطبيق لأعظم القوانين الاجتماعية التي شهدتها نفاقستان منذ عرفت التقنين . لأن القانون العظيم ، وسائر القوانين الرائدة المماثلة ، كقانون التأميم وولاية الدولة على المصانع والشركات تحتاج إلى كفايات خاصة ، وأخلاق أصيلة ، والقوم — للأسف الشديد — كانت توجههم بعض العقد ، من أهمها الثقة فقط بأهل الثقة ، وإن أعوز معظم أهل الثقة ، العلم ، والتجربة ، لذلك شاب

هذه القوانين الرائدة سوء التطبيق ، وهم أنفسهم قد كشفوا خطأهم وإن استمروا يماورون فيما اكتشفوه فمضوا يلحون — بالرغم مما كشفوا — أنه التوفيق كل التوفيق حتى أمر « الميرى » الجديد بانفتاحة اقتصادية ، فوضعوا قوانين وقرارات اقتصادية صدرت عن فكر ناضج يستهدف تحقيق اشتراكية الرخاء والغنى لا اشتراكية الفقر والعوز والجوع .

إن شعور الناس بالطمأنينة ، بعد أن خلصهم « الميرى » الجديد من سلطان « سششترْيان » و « شَعْورَيْان » ، وغيرهما من وزراء الطغيان ، هو الذى شجعهم على نقد بعض ما صدر من قوانين ، وما أحاط بالتنفيذ من أخطاء وقصور .

إن الناس يطالبون بتغيير عميق ينقذهم من القلق فى معاشهم ، وتغيير كثير من الأوضاع التى لا تزال تحمل رواسب العهد القريب .

ولست أدرى فيمَ الخوف والرعب والوجل الذى يحكمهم يدعوهم إلى مزيد من الحرية ليقولوا رأيهم فى صراحة ؟ وقد أقسم الرجل أن سيادة القانون هى سلطان اليوم ، وأن السنوات الثقيلة المريرة التى عاشوها بلا قانون ، وبلا ضمان للنفس والعرض والمال قد ولت وراحت ، وأنهم ينامون اليوم ملء جفونهم ، لن يطرق بابهم مع الفجر صفر الثياب بأحذيتهم الغلاظ ، ويأخذوهم من الدار إلى النار ، وأنهم أحرار لن يجرؤ أحد على التصنت عليهم وهم يتحدثون فى « التليفون » أو يتناقشون فى « الصالون » فقد انتهى عهد الطغاة الذين

كانوا يسجلون أحاديث للمواطنين جلت أو هانت ، ثم يسوقونهم بما سجل عليهم إلى السجن أو المعتقل أو حيث لا يعرف لهم مصير ...

لست أدرى فيمَ الخوف والرعب؟ إلا أن يكون عهد الطغيان قد فرض على القوم أن يعيشوا فى خوف ورعب فَرَقاً من الخوف والرعب؟! ...

أما بعد يا صديق فإنى آمل أن أتلق منك رسالة تطمئنى عليك وعلى سائر أفراد الأسرة ، وأحذرك أن تبعث بها عن طريق بريدكم ، فلتكن رسالة شفوية مع قريب أو صديق ، فأنتم تعيشون فى شقاقستان كما كنا نعيش نحن فى نفاقستان ، والله لكم ينقذكم فى لحظة من رضاه...

نفاقستان فى ٣٠ مايو

كم سعدت برسالتك الرقيقة التى حملت أخبارك الطيبة، والتى تضمنت مع ذلك تبرمك بالحجر على الحريات فى «شقاقستان»، ولا أحب أن تأخذ الحياة من جانبها المعتم، فأنت موفق فى عملك، ولا عليك فى عجزك عن التعبير عن رأيك بقلمك أو لسانك، فقد اصطليناها هنا نحو ثمانية عشر عاما ...

صدقنى، فقد كان بواب عمارتنا أستاذى الفطين كل هذه السنوات، فمنه تعلمت الصمت، والرضى بالمقسوم، ووجدت السعادة — أسوة بهذا البواب — فى حمد الله على لقمة سائغة، ومجاراة الناس فيما يعقلون وفيما لا يعقلون، ثم الاسترخاء دون تفكير سطحى أو عميق، وفيم التفكير، سطحيًا أو عميقاً وقد تولى عنا هذا فئة من الناس رأت — بالحديد والنار — أنها وحدها القادرة على الفهم والتمييز؟! ...

ويبدو أنك خرجت من رسالتى لك بمخارج بعيدة عما كنت اريد أن تعيه.

لا أريد أن تفهم من الصورة التى صورتها لك عن حياة الناس هنا التى عاشوها نحو ثمانية عشر عاماً، أن القيادة كانت شراً كلها، فهذا غير صحيح.

إن «المير» الذى حكم البلاد الجميلة كل هذه السنوات كان فلتة من فلتات القدر، ولا أريد أن أردد قول خصومه بأنه حكم بعقدة الحرمان،

والحرمان كما تعلم يملى الشر ، ويدفع إلى الظلم ، ويخلى القلب من الرحمة، والعقل من الاتزان .

لقد غير هذا « المير » من تاريخ تفافستان ، وغير من نظمها لعل الناس أن يسعدوا ...

لقد كانت نواياه بالقطع طيبه ، فإن من يحمل هم ثلاثة أرباع مواطنيه الذين عاشوا مئات السنين يستغلون كعبيد للأرض، أوكعبيد عند بعض أصحاب المصانع والشركات، إن من يحمل هم هؤلاء لا يمكن أن تكون عقدة الحرمان هى وسيلته فى الحياة .

لقد كان شارلمان يحكم فى الغرب نصف العالم ، ويحكم هارون الرشيد فى الشرق نصفه الآخر ، وطال حكم شارلمان وسط ثورات واضطرابات لم يخل منها إقليم من الأقاليم الشاسعة التى كان يحكمها ، وكانت السفارات بينه وبين هارون الرشيد رائحة غادية ، وفى إحدى تلك السفارات كتب شارلمان لهارون الرشيد يستفسر منه ، كيف يحكم الخليفة هذا الملك الواسع سنوات وسنوات دون أن يثور عليه إقليم أو تضطرب مقاطعة ، مع اختلاف البلاد التى يحكمها لوناً وذوقاً وتقاليد وأجناساً وديناً ؟ فأجابه الخليفة فى سطر واحد . . .

« لأننى أحسن اختيار الرجال» ! . . .

نعم ، لم يوفق «المير» الخطير فى كثير ممن اختار من الرجال ، فنتجت عن ذلك مآس كثيرة وأحداث رهيبة لم يكن هو نفسه يتوقع أن تجىء عن اختار من الرجال » .

لقد اختار حدثاً فى القصر عمره خمسة وعشرون عاماً اسمه « شمشريان » وأطلق يده فى سياسة الدولة ، فانطلق الغر الصغير يعبث بسياسة البلاد ، ويتحكم فى رقاب العباد ، حتى إن تعيين بعض الوزراء كان يتم من خلال أنامله الناعمة ، وكان بعض الوزراء التافهين يقفون ببابه ساعات وأياما ليأذن لهم باللقاء ، وكان يمهر باسم « المير » الخطير أخطر القرارات التى تحمل الشر لآلاف البيوت ، وكان بإشارة منه يُسجن أو يُلحق فى المعتقلات العشرات والمئات من أحرار نفاقستان ، وكان يعين ويفصل الموظفين من وراء ظهر « المير » الخطير ، وحتى ما كان يأمر به « المير » كان يراجع فى مكتب سمشريان ، فإن لم يرق له الأمر المكتوب دفع به إلى آلة تمزقه ثم تحرقه ، وبذلك تضيع حتى رغبات « مير » البلاد عند هذا الفتى الغر ثقيل الظل ، فارغ العقل ، ناضب القلب من الحب والحنان .

لم يوفق « المير » الخطير فى كثير ممن اختار من الرجال ...

كان بعض وزرائه من الموظفين ، وكان اختيارهم يتم بترشيح من البطانة والحواريين ، وقلما كان يعرف « المير » العظيم واحداً منهم ، إذ كان معظمهم أصدقاء أو معارف لتلك البطانة أو أولئك الحواريين .

والوزير — كما نعرفه فى بلاد العالم المتمدين — يلى الوزارة وفى رأسه فكرة تستهدف الإصلاح والتعمير ، فإذا جىء بموظف وقيل له كن وزيرا ، كان لا بد أن يلى ذلك برنامج أو ورقة عمل يضعها له

عشريان أو آخر من بطانة «المير» الخطير ، وكان عليه أن ينفذ ما وضع له فى هذا الإطار المعلوم ، فإذا سار على الدرب والتزم ، استمتع براتب الوزير ومخصصاته، وأبهة الوزير وسلطانه ، ولا بأس على من استوزروه أن يتركوا له حرية العبث بزملاء الأمس ، رفعاً أو خفضاً ، تشريداً أو فصلا .

فإذا رأى واحد من الوزراء — ومنهم بالقطع جماعة لا ينكر فضلها أو علمها أو خلقها — أن يهمل ورقة العمل التى وضعت له ، والبرنامج الذى أوصوه به ، وأراد أن يسوس الأمر بفكرة من عنده ، لزم بيته والتزام البيت منة جديدة وفضل يخلع عليه ، إذ جرت العادة أن يعامل معاملة أصحاب الرأى ، وأصحاب الرأى لا مكان لهم فى بيوتهم ، بل مكانهم فى المعتقلات والسجون ..

لم يوفق « المير » الخطير فى اختيار الرجال.

لم يختر للوظائف الكبيرة إلا أهل الثقة ، ولا يشترط لمن استوظفوه من أهل الثقة أن يكون ملماً بالوظيفة ، أو عارفاً خباياها ، أو دارساً لشؤونها ، وهو يؤخذ أحياناً من عمله الملم به ، العارف أصـــوله . الدارس أموره إلى الوظيفة الجديدة التى يجهلها .

تخيل ضابطاً عظيماً فى شئون الصواريخ قد عين رئيساً لمؤسســـة الأحذية ؟! ...

وقس على هذا المثل مائة مثال...

وأنك لترى الضباط العظام فى مؤسسات المطاحن والمضارب... والزبد

والكسب ... والأسماك والألبـــان ... والبيض والدجاج ... والفلفل والكمون ... واللحوم المحلية والمستوردة ... والمخازن والتوريدات ... والمطابع والزنكوغرافات ... وبيوت الموضـــة والأزياء ... والبقالة والعطارات ... والسفارات والقنصليات ... والصحف والمجلات ... والمحافظات والوزارات ... والسـيارات والدراجات ... ومؤسسات الدين والأخلاق ... وشئون الكتب والمطبوعات ... وأمور النقد والمال .. ومعاهد الذرة والالكترونيات .. والخزف والصيني ... والتصدير والاستيراد ... وإدارة القصـــور والعمارات ... والنقل البطىء والنقل السريع ... والكياســـة والسياسة ... ومصانع الغزل .. وشوادر الأخشاب ... والمستوصفات والمستشفيات ... وفلاحة الأرض وتحضير الصحراء ... والموسيقى والألحان ... والأزجال والأشعار ... والقصص والروايات ... وبطولة المسارح والسينمات ... وفن الإخراج وكتابة السيناريوهات ... والإذاعات والتليفزيونات .

وإنهم لفى كل مكان ، حتى لتحسبهم إذا بلعت الريق أو استنشقت الهواء !...

ولكى أكون عادلاً ومنصفا ، فإن جماعة منهم قد برزت فى هذه الميادين الجديدة عليهم ، تحدوهم خطى التوفيق والنجاح ، ولكنهم كانوا فى مواقعهم الأولى أعلاما وأمثلة، وجداراً لوطنهم وقت الضيق والشدة ، غير أنهم أهل الثقة ، والنظام فى حاجة إلى أهل الثقة ، وإن

كان الوطن قد نشأهم، وبوّأهم . وبيّأهم، حتى إذا جد الجد وجد فيهم درعه الذي يحميه من الكوارث والنكبات ...

وهنا المأساة ... إذ تطلع زملاء لهم إلى مثل هـذه الوظائف لتتضاعف رواتبهم مرات ومرات ، فشغلوا بالسعي وراءها ، فلما دعا الداعي إلى منازلة العدو المغير ، خاض الجيش معركته ونصف ضباطه في غير مواقعهم ، ونصفهم الآخر مشغول وراء مواقع لا علاقة لها بالضرب والنزال .

وهكذا خسرت نفاقستان معركة الحرب ، وخسرت بأهل الثقة معركة السلام .

ويقول أصحاب « المير » الخطير إنه غـير مسئول عن جرائم وأخطاء من عملوا معه ،فهو بحسه الدقيق وقلبه الرقيق رجل عطوف ، بسط يده لكل من آمن به ، مالاً وجاهاً ووظائف ، ومراتب عليا من السلطان ، وكان الكل يؤمن به ، ويقبل عليه ، ويتنافس في الزلفى له ... الطيب والخبيث ، العالم والجاهل ، الغني والفقير ، وكان يعتقد أنه بما صنع لهم سوف يردون إليه الجميل خدمة للوطن وإعلاء لشأنه.

ويقول خصومه ، إن من عمل معه من اختياره ، وأنه لمسئول عن إساءاتهم وسوءاتهم ، وإنه لا يليق بزعامة أمة أن تسوس هذه الأمة ولا تحسن اختيار الرجال ، فإذا من اختارتهم كانوا معاول هـدم وتخريب .

ورد أصحاب «المير» الخطير قائلين ، لقد اختار بعض المواطنين الوظائف القمة فأحسن كثير منهم لبلادهم ، وحسناتهم لا يمكن أن تنكر أو يماري فيهـــا إلا مغرض موتور ، فإن أساء بعض من اختارهم إلى الوظيفة أو إلى الأخلاق ، « فالمير » بشر يخطيء ويصيب وحتى عيسى عليه السلام لم يعدم فاسداً بين حوارييه ! . .

إن « المير » كان منكوباً فى بعض من وثق به وركن إليه وسلمه قيادة الأمور .

أنظر كم ألفاً أمر خلفه بتحريرهم من السجون والمعتقلات ؟ ...

أنظر كم ألفاً أمر خلفه بإعداد القوانين لرد حقوقهم إليهم ؟ وهى الحقوق التى سلبها منهم أهل الثقة فى النظام القديم ؟ ...

أنظر كم ألفاً ردت إليهم حقوقهم السياسية التى حرمهم إياها الوزير سمشريان ؟ ...

أنظر كم ألفاً أبيح لهم السفر للسعى وراء الرزق ، وكان يحرمهم هذا الحق الوزير شَعْوَرْيَانْ وزبانيته فى وزارة الأمن والنظام ؟

لقد أحسن « المير » الجديد اختيار معظم من اختار من الرجال ، فبدت أيامه الأولى وكأنها مطالع يمن ، وتحررت البلاد من كثير من أوضاع الظلم والطغيان ، ويرجى أن يزيد مع الأيام عدل « المير » الجديد فيرد لسائر المظلومين حقوقهم ، ويخلو عهـــده من ثغرات الماضي القريب ، هذا الماضى الذى ملأته مراكز القوى بكل فاسد وكريه .

نفاقستان فى ١٦ يونيو

أخى الحبيب

كيف لا تسعد وقد رزقك الله بنتا تنير لك الدنيا بجمالها وحنانها وإن فى إنجاب البنات لرزقا ، وهن فى البيت رياحين ، شـــذاها فى القلب والنفس جميعا . . .

إنك تخشى عليها الأيام ، وأنت تظن أن أيام شقاقستان ستمضى هكذا سوداً ، وأن ابنتك ستشب فى هذه الأيام السود ! . . . إنها لنظرة إلى الحياة مؤذية . . . إن الزمن لا يمضى على حال ، وإذا كانوا قد فصلوك من عملك ، فإن كفايتك ومواهبك أدوات سعد لك فى كل مكان .

يا رجل : إعقلها وتوكل . . . لقد عشنا أيامك هنا لا يحكمنا قانون ثم تبدل حالنا إلى أحسن حال . . .

إن قصتك مثلت هنا على أوسع نطاق ، فاستمع إلى ماجرى فى نفاقستان ليهون عذابك فى هذا الامتحان . . .

إذا أصبح القانون « فى إجازة » كما قال يوما واحد من أدوات الطغيان ، ارتد المجتمع فورا إلى مجتمعات الغاب . . .

وإذا صدر قانون يأخذ الناس بالظِّنَّة ، مخالفاً كل قواعد الإنسانية ، مباينا لأوامر الدين الذى يدرأ الحدود بالشبهات ، وإذا نص فى هذا القانون على حرمان المواطن من حق التظلم والتقاضى ، ارتد فورا

المجتمع المتحضر إلى مجتمعات الغاب . . .

إن بصدور هذا القانون ، يصبح القانون فعلاً في إجازة . . .

ووسط الفرحة بقيام ثورة الأحرار التي جاءت ترد الأمور إلى نصابها ، صدر قانون « الشبهات » وهو قطعا من بنات أفكار خبيث من حملة الرتب في العهود السابقات ، أراد أن يحجب بهاء هذه الثورة ويطفىء نورها بصدور هذا القانون ، فقد نص على أن لكل موظف أن يكتشف سوءات زميله بالحق والباطل، وفي هذا كتب مدير جامعة العاصمة الكبرى منشوراً إلى أساتذتها يطلب إليهم أن يهرعوا إلى لجان « التطهير » بما عندهم من سوءات الأصدقاء وهنات الزملاء ، وكانت سقطة من مدير الجامعة ، بيد أنها سقطة مقصودة منه ، فقد كان واحداً من حملة الرتب في عهد ملك السقطات ، فختم المدير بهـذا المنشور حياته بأسوأ ما يختم به مواطن دوره في الحياة .

ونص قانون الشبهات أو قانون التطهير على فصل من تحوم حوله شبهة في الإيمان بثورة الأحرار ، وهرع صراصير المستنقعات من المتخلفين ، فشهدوا زوراً بأن هذا الأستاذ أو ذاك ، لا يمكن أن يكون مؤمناً بالعهد الجديد وهو يلتزم حياة مترفة فيقتني سيارة أو يملك داراً بناها بعرق الجبين ، وهذه علامات إقطاعية ، وسمات طبقية ، لا تتفق وأهـداف الثورة التي جاءت للقضاء على الإقطاع وإزالة الطبقات ! . . .

ووجد قضاة ومستشارون يجيزون فصل مثل هؤلاء المواطنين من وظائفهم ، ومن عجب أن بقى هؤلاء القضاة والمستشارون فى مناصبهم بعد أن تبين أنهم ساهموا فى التدليس والتزوير على هذا النحو الفريد فى تطبيق القانون .

ومن العار الذى خلفه هذا القانون فى الجامعات خاصة ، أن كشف عن هوان الخلق بين الأساتذة والمعلمين ، فأخذ التافهون بتلابيب النبهاء واستطاعوا فى غفـــلة من الزمن وفى ظل شريعة الغاب ، أن يطيحوا بمعظم الأساتذة المجتهدين ، فخلت الجامعات بذلك أو كادت من صفوة علمائها ، ولم يخسر هؤلاء العلماء شيئاً ، فقد تغنت بفضلهم وعلمهم الجامعات ومعاهد العلوم والفنون خارج نفاقستان .

واستمر هوان الجامعات نحو جيل من الزمن ، حتى تطهرت من فئة الخسة والدناءة بالطرد حين بانوا على حقيقتهم عند ذوى السلطان أو بقضاء من الله فيهم ، أو بإحالتهم مع أوزارهم إلى التقاعـــد والنسيان.

وكانت تقارير الفصل يكتبها المستشارون والقضاة وهم رؤساء لجان التطهير ، وترفع إلى مجلس الوزراء ،فلا يراجع المجلس ما تضمنته هذه التقارير من توصيات بفصل الموظفين ، بل يصدر قراراته بفصل العشرات والمئات فى كل جلسة تعرض فيها هذه التوصيات ، وحتى أسماء المرشحين للفصل قلما كانت تقرأ على المسامعين من الوزراء ، فإن العدالة

قد نامت فى مجلسهم واستيقظت معاول الهدم تعمل بلا وازع من ضمير أو خشية من إله .

ومن المفارقات الطريفة أن ابن شقيق رئيس مجلس الوزراء كان ضمن كشف المفصولين فى إحدى الوزارات، ولم يقرأ المجلس كالعادة تقارير التطهير ولا أسماء المرشحين للطرد والتشريد ، و فصل الفتى، وفصله عمه ، وكانت كارثة فى الأسرة عندما علمت بمصرع فتاها ، ولما حاول عمه علاج الأمر باستثناء ابن أخيه تبين أن استثناء هذا الفتى من الفصل يقتضى استثناء عدة آلاف من الحالات ، وهو أمر فوق مقدور رئيس مجلس الوزراء !...

ولو قرأ الوزراء تقارير الفصل لتبينوا ما فيها من جور وعسف وتضليل ، فقد فصل أستاذ من كليته لأنه « يشرب » كل يوم اللبن الذى فى عهدته وكان اللبن الذى فى عهدته كل يوم نحو « طن » من الحليب !

وامتد التطهير إلى كل وزارة وإدارة ، أو قل امتد الظلم إلى كل مكان ، وكانت لهذا الذى وقع على آلاف المواطنين آثار خطيرة فى مجتمع نفاقستان ، بدأت بوفاة لبعض من علموا بفصلهم فى التطهير، وكان منهم طبيب شاعر ، غنت الدنيا قصائده ، وكانت كل تهمته أن صيته كشاعر غلب صيته كطبيب، وما كان ينبغى فى عرف من فصلوه أن يفطر شاعراً ، وقد عز على الرجل — وهو قيثارة نفاقستان التى على أوتارها

غنى المطربون والمطربات معانى الحب والحرية ـ عز عليه أن يحطمه قانون الغاب ... فمات ! ...

وكادت يد الغدر أن تعصف بواحد من أعظم كتاب نفاقستان ، وكان يشغل وظيفة المدير لدار الكتب والوثائق ، وكانت جريمته أنه منصرف عن رعاية الكتب إلى تأليف روائع الكتب ! لولا أن حماه « المير » الخطير، إذ كان يرأس مجلس الوزراء مصادفة ، فذكر أنه تعلم الوطنية من كتبه، وأن اتهامه بأنه غير منتج جريمة لا تغتفر ، وأن الوزير الذى قدمه للتطهير يجب أن يطهر هو ولا يبقى فى صفوف الوزراء ...

ولعلها المرة الوحيدة التى أنصف فيها مرشح للفصل بالتطهير فى عشرات الجلسات التى عقدت للقضاء على النخبة المنتقاة والصفوة المرتجاة من أهل الرأى فى نفاقستان .

وقد كان بين زعماء الثورة ، ثورة الأحرار ، جماعة من شواذ المجتمع، فطرت على الشر ، بعقولهم مسّ ولوثة ، وكان كل منهم يظن أنه هـــو الثورة ! فيصدر باسم القيادة قرارات بفصل العشرات من الموظفين ، ولم يكن لهذه القيادة علم بهذه المذابح ، ولم يكن فى مقدورها أيضاً أن تعالج أمراً أعلن باسمها فى الصحف ، وقد يترتب على علاجه معركة بين العقلاء والمجانين ! . .

ومن الآثار الاجتماعية الخطيرة التى ترتبت على قانون الشبهات، أن بعض صغار الموظفين الذين حرموا وظائفهم لم يكن فى مقدورهم مواجهة

الحياة بأسلوب كريم فانحرف منهم من انحرف ، وإن عجز بعضهم عن الانحراف تولت عنه المهمة زوجاته وبناته وأكلن بأثدائهن ، وهو إثم أساء إلى ثورة الأحرار التي جاءت لتنصف الضعيف وتغيث اللهيف ، وترفع رءوس الناس وتحمي ذيولهم من الوحل ، وتطبعهم بطابع العزة والكرامة ، وهي الشعارات التي نادوا بها وحجبتها للأسف الشديد قوانين العسف والطغيان .

نفاقستان فى ٢٧ يوليو

أخى العزيز

لقد أذهلنى ما روته رسالتك عن ثورتكم الدامية التى أطاحت بنظام الحكم عندكم ... إننا فى نفاقستان لا نعرف هذا اللون من العنف ، لأن طبيعة هذا الشعب السماحة والغفران .

أعوذ بالله مما حملته رسالتك عن أحكام الإعدام بالجملة ، وسحل المواطنين فى الشوارع وما أبشع تصويرك للرعاع وهم يشربون من دم خصومهم ويرقصون لتطاير أشلائهم ...

لا يا عزيزى : إن ما تعيشونه هناك لم نعرفه نحن هنا ، ولم يطل بنا الزمن لنرى الطريق ...

صحيح لم يكن واضحاً منذ قيام الثورة لشهور عدة من يسوس أمور البلاد عندنا ؟

لم يكن معروفا من زمرة الثوار إلا ذلك الشاب الذى أذاع بيانها فى صباح يوم قائظ حرور ، ثم ذلك «المير» الذى قدمته رتبته العسكرية وما قيل عن شجاعته فى مواجهة الملك وصنائعه من عسكريين ومدنيين .
وكانت سياسة البلاد مائعة ..

هل ما حدث كان انقلاباً عسكرياً ، أو كانت حركة مباركة كما سماها العسكرى الكبير ؟ ... أو كانت ثورة بيضاء كما زعموها نحن الأحرار من المدنيين ؟

وهل كانت الحركة المباركة حركة يمينية تستهدف تغييراً فى أساليب الحكم دون مساس بالقواعد والأصول التى عاشتها البلاد عشرات السنين؟ أو هى حركة يسارية ترمى إلى تغيير جذرى يقتلع الماضى بكل شره وخيره ليجيء مكانه بجديد يزعم اليساريون أنه الخير العميم والنعيم المقيم ؟ ! ...

وكان العسكرى العنيد وقد عين « ميراً » للبلاد لا يميل بطبعه إلى العنف أو التطور السريع خشية أن تكبو الثورة فتفشل أو تضيع ، أو تنحرف عن مسارها الهادىء فتنكب البلاد وتجلب عليها متاعب قد تعوق تقدمها وتقف بها فى الطريق ، وكان يأمل أن يحدث « تثوير » لحركته المباركة على مهل وفى غير عجلة ، سواء كان ذلك فى شؤون الداخل أو الخارج ، حتى إذا تحقق أمله انسحب من الميدان وترك الأمر شورى للساسة المدنيين .

ولا أستطيع أن أحكم على سيرة « المير » قائد الحركة المباركة ، بالرغم مما نشره من فصول عن حكايته ، وبالرغم مما أذاعه عنه خصومه ، وعندما يكتب التاريخ سيرته ويصف عهده ، فلن تكون الكلمة لخصم موتور أو صديق مبهور أو موظف مأمور ، أو لوثيقة مزورة أو مقالة منمقة ، والتاريخ لا يسجل إلا كلمة الحق ، وقد يمضى التاريخ فى غيبوبته فترة تقصر أو تطول ، غير أنه سيفيق حتماً ويضع النقط فوق الحروف

ولقد كان أول « مير » للبلاد — فى يقينهم — عقبة يجب أن تزول لذلك كان لابد « للمير » الجليل خفيف الظل أن يغيب ظله من كل مكان .

ثم بدت القيادة تتركز حول شاب ذكى شجاع حازم حاسم ، لاينكص على عقبيه ولو أدى الأمر به إلى الموت ، فإنه معاند ، وزاده عناداً فى كل ما يراه من أمور ، أن أحداً ممن يحيطون به لم يعقب على رأيه برأى ثم تولت أدوات الدعاية والإعلام ، بجهالة ، وبترتيب من البطانة ومراكز القوى ، التسبيح بحمده ، وتصويره ملكاً نزل من السماء ، وليس من طبع الملائكة أن تخطىء أو تتعثر أو تصدر عنها هفوة من الهفوات أو هنة من الهنات . . .

ومع الأيام أخذت أدوات الدعاية والإعلان تزيد من نفاقها حتى غنت الإذاعات فى « المير » الذكى الشجاع ما ترتله عادة الجماعات الدينية فى ذكر الله ، وكانت هناك أغنية حذف منها اسم الله سبحانه وتعالى وذكر مكانه اسم « المير » القادر الجبار الذى يسبح بحمده سكان المنطقة من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر ...

لقد كان « المير » الشاب ، بشخصيته القوية وجسمه الفاره ، وعينيه النفاذتين الساحرتين وصوته المليء ، وأناقته الملحوظة ، وخطاه الثابتة ، وطلعته المهيبة ، وسيرته الخاصة الخالية من عبث الشباب ومجونه ، كان كل ذلك جديراً بأن يرفعه إلى مقام الزعامة والسلطان .

ورسم هذا الشاب لنفسه ولوطنه طريق المجد ، وقرر أن يزيح من الطريق أى مانع أو حائل ، فسوف يقطعه حتى يصل إلى مناه ، سواء فرش الطريق بالورود والرياحين ، أو فرش بجماجم الخصوم والشانئين .

ولما كانت الصفات العظيمة قد تيسرت لهذا الشاب الفطن النبيه ، فإنه تصدر مائدة الحياة فى نفاقستان ، وما كان يمكن أن يشاركه أحد فى هذه المائدة ، لذلك نحى عنها معظم زملاء جهاده ، سواء العقلاء منهم أو المتاثون ، وانفرد بالمائدة وحده ، هو الذى يختار أطباقها . . وهو الذى يطهوها ... وهو وحده الذى يصيب من أطايبها ويأذن لمن يشاء أن ينال منها بقسط . . . ودون إفراط !

ثم يرى هذا « الميز » الشاب أن التوفيق كان دائماً فى خطاه ، وأن شجاعته التى واجه بها قوى العالم مجتمعة ، وليس له من سلاح إلا هذه الشجاعة ، قد أثمرت وآتت أكلهـــا حتى جن به القوم فى نفاقستان وتوريطستان وشقاقستان ووردستان وغيرهم من أبناء المنطقة الذين بهرتهم شجاعته وزجوليته ، ومن ثم أصبحت له فى قلوبهم قداسة لا يشاركه فيها إنسان .

ويطمئن « الميز » الشاب إلى « إلهامه » الذى يرسم خطاه ويفسح له الطريق زهاء خمسة عشر عاما ، يطير به من نصر إلى نصر ، ويحقق له التوفيق تلو التوفيق ، تدعمه أبواق الدعاية التى رُتبت ونُظمت وحشدت بأسلوب لم تعرفه التاريخ ، التاريخ الذى شهد ألف ميز وميز ، ولم يرفع واحداً

منهم إلى مراتب الآلهة إلا فراعنة مصر ، ثم هذا « المير » الشاب ، مير دولة نفاقستان ! .

لقد اشتهر عن ناس نفاقستان أنهم قوم يستأثرهم الإيمان ، الإيمان بأى شىء ، فليكن إيمـــانهم فى عبادة الشمس أو القمر أو النهر ، أو الجعران ، أو القط أو الثعبان ، أو العجل الكبير . . . فإذا انتهوا إلى عبادة حاكمهم فتلك غاية التقوى والإيمان ، فهو على الأقل من لحم ودم وله عقل نابه وفى مقدوره أن يعاقب ويثيب . . .

وكان الحب يعميهم أحياناً عن وزن الأمور بميزان دقيق ، فقد ظهر فى نفاقستان قبل « المير » الخطير بنحو خمس وثلاثين سنة « مير » آخر ، زعموا ـــ من فرط حبهم له وإعجابهم به ـــ أن اسمه حفرته العناية الإلهية على البطيخ وهو فى الحقل لم ينضج بعد ؟ ! . . .

هكذا كان أهل نفاقستان من آلاف السنين . .

أجيال تروح وأجيال تجىء ، وكلها ترى ـــ إيماناً أو نفاقاً ـــ أن صاحب الزعامة أو السلطة ، سواء جاءته شرعاً أو اغتصاباً ، هو الإله ، فإن نهاهم دينهم السماوى عن هذه الزندقة وهذا الإلحاد اعتبروه ظل الله فى أرضه . . . فهو الإنسان الذى لا يخطىء ، الذى لا ترد له كلمة ، الذى لا يعقب على رأيه رأى ... الذى يجب أن يؤمن به من سعد بنعيمه أو تعس بجحيمه ، الذى يجب أن يُشنق أو يُسجن أو يُعذب من لا يرى فيه رأى القطيع من أهل نفاقستان ! .

نفاقستان فى ١٢ يوليو

أرجو أن ترى معى أن للنفاق أشر الشر فى ألوان الشر ...

وسوف تنبئك رسالتى هذه بجديد فى النفاق لم تر الدنيا نظيراً له ، ولن ترى الدنيا نظيراً له ...

أفهم أن ينافق فرد أو جماعة ملكاً أو « ميرا » ، أما أن ينافق شعب بأسره هذا الملك أو هذا « المير » فتلك معجزة القرن العشرين الذى نعيشه والتى تضئول حيالها اختراعات الذرة والهبوط على سطح القمر .

لقد كانت معارك الصحراء فى نفاقستان علامة واضحـــة على طريق النفاق .

ولا أفيض فى الحديث عن المعركة الأولى منذ سبعة عشر عاما ، فإنها كانت أقرب إلى النصر منها إلى الهزيمة ، ذلك أن « المير » واجه فيها جحافل دولتين عظيمتين ، وهو لم يستكمل تسليحه بعد ، وهو لم يَعتمِد على أحد من قبل ، وقد أعلن أن من حق بلاده أن تسترد « طريقاً » حيوياً لما كان يستغله أجانب عن نفاقستان ، وقـــد استطاع أن يكسب معركة « الطريق » بالرغم من الهزيمة ، واستطاع بإيمان شعبه وحيويته أن يرد المغيرين من غير حرب .

كانت معركة « الطريق » أقرب إلى النصر منها إلى الهزيمة .

وقد انتهزت الدولة توفيق « المير » فى هذه المعركة الخطيرة فانطلقت أبواقها من صحف وإذاعات تتحدث عن البطولات الخيالية ، وتطب

القلق الذى عم الشعب بأغانى النصر التى ألفت ولحنت وأذيعت فى ساعة زمان ، وتنافس المؤلفون والمطربون فى وصف هذا النصر حتى رقص الناس فى الشوارع ، وأقامت الهيئات المآدب ، وجن القوم فى المنطقة كلها « بميرنا » الخطير .

وكنت أنظر إلى « مير البلاد » بعد هذا الامتحان مبهوراً كسائر الناس ، وكنت أدعو الله أن يجنبه سوءات الانتصار ! وتمنيت من كل قلبى أن يبقى حيث هو ، فى القمة يهدى ويوجه ويشير ، بعيداً عن الوساويس الخنانيس ...

إنه بعد« هزيمته المنتصرة »يستطيع أن يمضى فينا كما مضى بوذا فى قومه من عشرات القرون .

لقد كان فى مقدور « المير » الساحر الخطير أن يعيد سيرة بوذا فى القرن العشرين ، ولكن بطانة السوء ، وحواريى الظلام ، ومراكز القوى الباغية الطاغية ، أرادت غير ما كان يريده أمثالنا من عامة الناس ! . .

. . . . . .

ثم مـــاذا ؟

إذا خسر « المير » العظيم الحرب بعد عشر سنوات من « الهزيمة المنتصرة » وكان حجم الكارثة فى هذه المرة أكبر من الدعاية وأقوى من الدعاة ، أجهضت أغانى النصر ساعة مولدها ، وساد الأسى جميع النفوس ، وبانت الحسرة على الوجوه فى الشوارع والبيوت .

ثم يظهر «المير» فى المرئيات يعلن فى شجاعة منقطعة النظير «مسؤوليته» وحده عن الكارثة التى حلت ببلاده وانتهت إلى هزيمة لم تعرفها نفاقستان من آلاف السنين ، ثم يقرر استقالته فى نغم أجرى الدمع فى مآقينا ، فقد بدا كالأسد الجريح لا يملك من نفسه شيئاً ، وكان خصومه أشد الناس بكاء وأكثرهم ألما ، ذلك لأن «المير» كان بيننا كرب الأسرة الذى قسا على بعض أبنائه . وإنهم — من قسا عليهم — ليضيقون بقسوته ، غير أنهم لا يسيغون أبداً إهانته ولا يرضون هوانه ؛ فإن فى إهانته وهوانه عاراً يلحق بالأسرة جميعاً .

وفجأة هرعت الأمة كلها تطالب ببقاء «المير» فى موقعه، ومضت تهتف بحياته ، وتتغنى مآثره وأمجاده ، وتسبح بحمده زلفاً من تلك الليلة العاصفة بغارات العدو ، حتى إذا طلع النهار كان «المير» هو وحده المنتصر بين شعبه المهزوم؟ ! . . .

إن الرجل الذى انتصر وسط شعبه المهزوم لم يواجه فى الحق نصراً فى حياته مثل هذا النصر يوم انتكس جيشه بسوء القيادة أو انصراف القادة إلى غير الساحة التى أهلوا لها ، أو تعدد الرياسات وتضاربها فى الميدان أو وقوع بعض الخيانات من الصغار والكبار على السواء .

إن عشرات الألوف من أبناء هذا الشعب الذين فقدوا حياتهم فى الميدان، وتخريب المدن الزاهرة ، وإغراق البلاد فى الديون ، كل ذلك لم يَحْسب

النصر الذى عاشه « المير » وأضفاه عليه شعبه فى إصرار لا يمكن أن يجىء كله بتنظيم وتدبير ...

هل وقفت الهزيمة النكراء موجة الرياء فى نفاقستان ؟

والله ، إن فى « المير » لسحراً ...

لقد أهل النفاق بعض القضاة والمستشارين وبعض أساتذة الجامعات وغيرهم من خيار الناس — وإن كانو جميعا قلة بين زملائهم — لأن يكونوا مطايا لظروف الحياة . فقد رءوا المال والجاه عند السلطان فأغذوا السير إلى ساحته ، وتنافسوا — بالرغم من جراح الوطن — فى اشتراع القوانين التى تزيد من الحجر على حريات وعقول الناس، وألف هذا البعض من أساتذة الجامعات الكتب فى سيرة « المير » وفلسفته فى طرائق النظر إلى الأمور ، وما كان ينبغى أن تكون هناك أمور يعلو صوتها على صوت المعركة والجهاد لرد العدوان، ومن ثم استرداد الكرامة التى امتهنت بسوء التوجيه والتدبير .

ثم بلغ النفاق ذروته حين وقف محافظ الجنوب يوماً يعلن أن « المير » نبى أتى بما لم تأت به الرسل والأنبياء من قبل ، وكان المحافظ يخطب فى عدة آلاف من المواطنين احتفالا بزيارة « المير الساحر » ، فهمهم المستمعون مستغفرين من هذا الإلحاد فى بلد يقال إنه منارة الدين ، ونظر الناس إلى وجه « المير » فرأوا امتعاضة وحمرة كست هذا الوجه الكريم ، وتوقعوا

مصيراً سيئاً لهذا الملحد الذي أعلى من «قدر» المير، ووضعه فــوق أقدار النبيين ...

وتم عقاب المحافظ بعد أيام فرق محافظ لعاصمة نفاقستان ! ؟ ...

ربما كان المحافظ الذي استهل نشاطه في العاصمة بأن منح القانون إجازة ! ربما كان الرجل فيما قال متأثراً بكتاب كارليل عن البطولة وأصحابها ولم يكن يعني إلا هذا اللون من عبادة الأبطال ...

لم يكن طبيعياً أن يكون لرجل على خلق نصيب في مأدبة النفاق والمنافقين، فكل من ولي منصباً قيادياً كان لابد أن يكون في التنظيم السري الذي تديره البطانة ومراكز القوى، وكان عدد هذا التنظيم فيما يقولون خمسين ألفــاً من المنافقين والانتهازيين، يُختار منهم جل الوزراء، ووكلاؤهم، ورؤساء المؤسسات ومديرو الشركات والسفراء، وسائر الوظائف الكبرى، ويندر أن يختار واحد من غير هــذا التنظيم لعمل كبير يعتد به أو يكون فيه فضلة من خير أو بقية مَنٍّ وسلوى...

وكان هــذا التنظيم عيناً ترى وأذناً تسمع، ترى وتسمع ما يفعل ويقول المواطنون ... وسلط التنظيم عيونه وآذانه على أهل الرأي والفكر خاصة، فهم عادة أخطر المبصرين، وهم عادة أقدر الناس على الكلام المفيد والنقد الموثق والتوجيه السليم، لذلك كان من بين أعضاء التنظيم، أساتذة في الجامعات ومعلمون في المدارس، وقضاة في المحاكم، ومحامون وأطباء ومهندسون وصحفيون، ومثلهم في كل موقع صغير أو كبير.

ولم يكن عبء العمل في التنظيم عند أعضائه ثقيلا على الفهم أو القلب أو الضمير !

إن من الواجبات الأولى على السادة أعضاء التنظيم ، أن يسجلوا مايرونه أو يسمعونه في تقارير ترفع إلى الخلايا الخاصة بهم ، ثم إلى خلايا أعلى ثم إلى البطانة العتيدة ، وعند ساحتها يصدر القرار بالنسبة للمواطن الجرىء الذي سجلوا نقده الصريح أو نقلوا رأيه الجرىء ، فله إذ ذاك أمتار في سجن ضيق أو مكان في معتقل فسيح ، فإذا كان ماسجل أو نقل يستهدف الحض على كراهية النظام أو التفكير في ثورة أو انقلاب ، فذلك يقتضى تعذيب المواطن حتى يفقد الذاكرة أو يفقد الحياة بلون فريد ، كأن يموت بسم زعاف أو بنفخ الأحشاء والبطون أو تدهسه سيارة في الطريق ! ! ...

أما عضو التنظيم الذي كشف صاحبه ونقل عنه نكتة في البطانة أو مزحة في « المير » فعلى قدر ماسجل ونقل يثاب الرجل ، فيكون وزيراً في أول تعديل وزارى ، أو يصدر قرار بولايته إحدى المؤسسات أو الشركات أو المحافظات أو السفارات ، أو غير ذلك من وظائف القمة ، أو ينحى له رئيس مؤسسة أو مدير أو محافظ أو سفير ليأخذ مكانه ، فمن التقارير مايستوجب الجزاء السريع ، أو تخلق له إحدى هذه الوظائف ، والتنظيم قادر بتوجيه القيادة العليا على خلق الوظائف في شتى الميادين .

وكنا إذا قرأنا فى الصحف أن فلاناً قد عين فى وظيفة من هذه الوظائف وأن صاحبها الأصيل قد نحى عنها ، فهمنا أن تقرير الفتى الجديد فى التنظيم السرى كان أدسم وأوقع من تقرير الفتى القديم الذى نحوه عن عمله ، أو نقلوه إلى عمل آخر ، أو ذهبوا به إلى بيته مع احتفاظه بحقه فى الراتب الكبير دون عمل يؤديه ...

لو أن أعضاء التنظيم الخمسين ألفا التزموا الصدق لصحت رسالة هذا التنظيم على ما فى هذا الأسلوب من مجافاة للخلق الكريم ، لأن التجسس وظيفة استنكرتها الأديان جميعا ، وأباحتها كثير من الدول — بالرغم من استنكار الأديان والأخلاق لها — لحماية أوطانها من خطر خارجى داهم ، أو خطر عدو قريب أو بعيد ، فقد كان أعضاء هذا التنظيم يزورون التقارير ليزيحوا أصحابها عن يشغلون مواقع يتطلعون هم إليها ! ...

بهؤلاء الآلاف من المواطنين الذين انتهوا إلى السجون أو المعتقلات كانت لهم أسر تضورت جوعاً أو انحرفت خلقاً ، وقد باركت بطانة « المير » كل هذا الظلم والفساد ، ولم يستيقظ ضميرها يوماً لترفع عن هؤلاء الضحايا ماجرته عليهم من الذل والبلاء ؟...

ثم ماذا ياصديقى ؟

يشاء ربك فيطوى سيرة وينشر سيرة ، فتجىء قيادة جديدة تلغى هذا النظام إلغاء وتخلى السجون والمعتقلات من صرعاه ...

نفانستان فى ٥ سبتمبر

آمل أن تكون قد أعجبتك « المانجو » التى حملها إليك صديقنا شرشور، فهى «القطفة » الأخيرة من مزرعتنا التى ترقد عند أقدام أثرنا الخالد العظيم ، وكم بودى أن تزورنا يوماً لترى هذا البلد الذى يعبده ناسه ويحبه زائروه ، فكل شىء فيه جميل ، وكل شىء فيه سهل وميسور .

إن من طبع الناس هنا أن يتركوا حياتهم تجرى مجرى نهرهم الكبير لا يعترضها هم ولا غم ، وحتى إذا نزل بهم الهم فلن يطول فى نفوسهم وسوف يزحونه بنكتة أو حكاية تنسى الهموم ، أو يقبلونه على أنه القدر المقسوم .

إنه شعب ضاحك باسم روّاح ... إنه أخف شعوب الأرض ظلا ... عنوان للصبر واحتمال المظالم ... فقد عاش آلاف السنين يبنى الهياكل الخرافية والقنوات المثالية ، راضياً سعيداً ونصف البناة يتساقط من البرد والجوع ...

نصف كلامهم نكت وسخرية ، وأحيانا تكون هذه النكت والسخرية أشد عنفاً من طلقات الرصاص ، وهى تزيد وتلذع حين يعز عليهم التعبير عما فى نفوسهم من سخط وضيق ... إنهم ينكتون حتى فى سرادق العزاء ! وإن عزت النكتة فى خصم أو صديق ، تناولوا

أنفسهم بالتنكيت والتبكيت ، وطارت هذه النكت تروى فى كل بيئة وتجرى على كل لسان !

ولشد ما يزعجنى أن أجد الموسوعات العالمية لم تف نفاقستان حقها ولم تبرز جغرافيتها وتاريخها على نحو يتفق وعظمتها ، ولم تذكر أنها دولة قديمة قدم الليل والنهار .. سماؤهـــا صافية وأرضها مواتية ، الطغيان فيها قاعدة والحرية استثناء ! يقع رأسها على بحر ، وذيلها وأجنحتها فى الفيافى والقفار ، حكمت الدنيا أجيالا وأجيالا ، فأشاعت العلم والعرفان ، وأشاعت كذلك الزلفى والرياء .. ناسها منافقون ، ونفاقهم أحيانا لذيذ طريف وإن لم يجددوا فيه منذ بدءوا يدبون على أرض بلادهم . وهم بهذا النفاق أفسدوا حكامهم منذ فجر التاريخ ، وما أظنهم سيغيرون طبعهم مهما يساقوا إلى التطبع بأخلاق الآخرين ...

ولا شك أن فى حاضر نفاقستان مفاخر وأمجاداً تضارع مفاخرها وأمجادها عبر مئات السنين ، وكان بودى أصور لك هذه المفاخر والأمجاد غير أنى أخشى أن تظن أن كلمة الحق فى حاضر نفاقستان مبعثها النفاق الذى يسود دوائرها ويسيطر على قلوب بنيها وعواطفهم ..

.. كم هى جميلة بلادنا ؟

من يزر نفاقستان يقف كثيراً أمام أمجادها وجمالها وسماحة طبع أهلها ، فنفاقسيان التى ظلموها فلم يفوها حقها فى كتب التاريخ وسائر الموسوعات ، عاشت آلاف السنين نور الدنيا وبهجتها بعلومها وأفكارها

وتفوقها فى التعمير والطب والكيمياء .

كانت أمة بكل مقومات الأمة المتحضرة ، يوم كان الإنسان فى أوربا وأمريكا يعيش فى الكهوف كما تعيش الزواحف والضاريات !

وكل زائر لآثارها يقف حائراً أمام هذه العبقريات التى بنت كل هذه الآثار ، وكل أثر له قصة ، وكثير من هذه الآثار سجل عليها تاريخ فترة من فترات الزمن تروى حكاية من حكايات المجد ، فمنها عرفنا أنها أول أمة آمنت بالتوحيد ، وكان الدين منذ ذلك التاريخ الموجه الأصيل لأخلاق أهلها، فزان طباعهم ونحا بهم مناحى الخير والفضيلة .

وإنك لتذرع نفاقستان شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، فإذا هى رقعة خضراء تسحر من يراها ، ينساب نهرها الخالد فى جلال يحمل الخير والرخاء ، كما حمل من آلاف السنين البهجة والاستقرار ، وقد كان هذا النهر يثور بين آن وآخر فتفسد ثورته شاطئيه ، ويغرق ماؤه الأرض ومن عليها ، فاستطاعوا بعلمهم أن يتحكموا فيه ، ويهذبوا من طبعه وإن كان قليلاً ما يجفو طبعه ، وأقاموا عليه السدود الشاهقات ، وحفروا له الروافد العميقات ، وسارت فيه المراكب والبواخر تحمل الرزق والناس وتحمل الأخلاق والطباع ، وأنشئت على جانبيه وفى أحضان روافده المدن العامرة ، فنشأت بذلك أمة كانت أول من بنى وأشاد ، وأول من قرأ وكتب ، وأول من غنى ورقص ، وأول من عرف الآخرة وخشيها وأول من زرع وحصد .

ثم عبرت مراكبهم البحار لينقلوا حضارتهم تلك إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ومضوا فى تمصير الناس والجماعات حتى خلقوا من أصحاب الكهوف ناساً وجماعات .

ومن عجب أن جرت الدنيا آلاف السنين ، فإذا أولئك الذين كانوا يسكنون الكهوف يوم كان أهـــل نفاقستان يسكنون الدور والقصور ، يتحكمون فى مصائر هـذه الأمة ، ويريدونها أن تسيغ الهزيمة والعار ، تلك الأمة التى علمتهم وحضرتهم فردوا جميلها عقوقاً وشرآء ، وحاولوا جيلاً بعد جيل أن يذيقوها الذل والهوان ، وكانت فى كل جيل من هذه الأجيال تنتصر على الذل والهوان .

وإنى لأرى فى أهل نفاقستان اليوم ما أعرفه عن أهلها من آلاف السنين ... ناس من سجاياهم الاعتراف بالجميل ، ألم تر فى تاريخهم كيف أهدوا نهرهم كلما فاض أجمل فتياتهم قربانا ؟ إنها تحية شكر واعتراف بالجميل ، إنهم حتى يومنا هذا لا ينسون جميل من يسدى إليهم الجميل .

وهذا الكرم الذى يسيطر على طباعهم وهو أقرب ما يكون إلى السفه ، لا يزال يحكم سيرتهم فى الحياة ، وإن الرجل ليقدم قوت عياله تحية لضيف قريب أو غريب .

وهذا الحب الذى يضفونه على كل إنسان وأحياناً بعبط ، لا يزال يملك عليهم خواطرهم ويسرى فى دمائهم ويحكم سرائرهم .

وإنه العجب كل العجب ، أن ترى القوم هنا تئن جوانبهم بالأسى

سواء نزلت النازلة بعدو أو صديق ، فإن فطرتهم لا تعرف التشفى ؛ فقد بكى خصوم الملك حين عزلوه ، وبكى خصوم « المير » الساحر ، مرة حين هزم ، ومرة حين وافاه القدر المحتوم .

والله يا صاحبي ، إنى لسعيد أن أكون واحداً من هؤلاء الناس الذين فطرهم الله على المودة والمعروف .

نفاقستان فى ١٣ سبتمبر

صدرت اليوم صحيفة الأرقم الداهية وفى صدرها هجوم على السيد « علصريان » تتهمه باستغلال الوظيفة وما أدرك من سلطان ، إذ حمل معه فى عودته من سفارة فى الخارج ماثقل وزنه وغلا ثمنه ! وأن سيارات ضخمة كانت تنتظر ماحمل فى المطار ، وأن الطائرة التى هبطت بهذا كله قد أفرغته فى السيارات التى مضت به إلى قصره ، وهناك وضعت الدولة يدها على الجمل بما حمل ؟...

وسمت صحيفة الأرقم الداهية هذه المصادرة (ظاهرة صحية) إذ أنها قد حصلت لنائب المير الخطير ، وأن هذه الظاهرة تعنى أن الناس فى نفاقستان سواسية كأسنان المشط أمام القانون ، وفهمنا نحن من هذه الظاهرة الصحية أن « المير » الساحر قد غضب على نائبه ، وأن وراء ذلك خبيئاً لا يعلمه إلا الله ...

وانطلقت ألسنة التنظيم الطليعى تهاجم نائب « المير » السيد علصريان فى حملة منظمة تستهدف تجريحه والحط من قدره عند مواطنيه ، وفى الحق أننا لم نكن نعلم قدره قبل أن تنشأ هذه الأزمة بين « المير » ونائب المير ..

وأخذ التنظيم يطلق الإشاعات فى الرجل بالحق والباطل دون أن تتاح له فرصة يذود بها عن كرامته ، أو يفند ما ألصق به من اتهامات ، وفى هذا تؤخذ الدولة من مكنها ، لأن كل اتهام — إلا فى شريعة الغاب — يقتضى دفاعاً ولو كان المتهم من طواغيث الظلم والطغيان ..

ومضى التنظيم المسعور يهاجم الرجل ، فزعم أنه إقطاعى كبير ، وآية ذلك أنه ولد فى بيت عريق ! وأنه نشىء تنشئة فيها شىء كثير من الترف ، وأنه بعد الثورة ملك قصرين ، أحدهما فى حاضرة نفاقستان وثانيهما فى ثغرها البسام ، وأن القصرين قد ازدحما بالرياش الفاخر والأدوات الكهربية ، ولن تجد لها نظيراً إلا فى قصور المليونيرات من الأمريكان ، وأنه يستغل الدولة إذ جعل لتنقلاته ست سيارات يقوم على خدمتها سبعة من السائقين ، والسائق السابع عين من باب الاحتياط فقد يمرض سائق من الستة أو يغيب !

ومضى التنظيم فى حملته ساخراً مما يدعيه الرجل لنفسه من أنه ماركسى خطير ، مع أنه يستجلب لنفسه الفاكهة النادرة من الخارج وترد إليه ملابسه — حتى ملابسه التحتية — من لندن وباريس ! وهذا الذى يفعله نائب « المبر » امتهان لعقلية الشعب ، إذ كيف تستوى هذه الحياة الميسرة المترفة الرغيدة مع الكتاب الذى ألفه — أو كتب له ونسبه هو لنفسه كما يقول التنظيم الطليعى — وفى الكتاب نظرات شيوعية تفرض حياة التقشف وتوجب القضاء على التطلعات الرأسمالية التى تبيح القصور ومتاع القصور ولو على حساب العمال والفلاحين ؟ . .

وأخطر ما أذاعته ألسنة التنظيم الحداد ، أن أدوات الترف التى حملها الرجل معه وصادرتها الحكومة ، إن هى إلا هدايا من حكومة صديقة مضى يتزلف إليها ، ويؤكد أنه رجلها . وأنه لها إن أرادت

غاية فى نفاقستان ، لذلك أمر « المير » الساحر بهذه المصادرة ، وألزم الرجل بيته ، وعطل كل ألوان الاتصال به ، وأطلق عليه التنظيم يقليه ويشويه !!! ...

ومن عجب أن يطلق التنظيم أنيابه فى علصريان، فعلصريان نفسه رأس هذا التنظيم، وهو منشئه ومستغله وصاحب الأمر فيه ، ولكنه النظام الذى كان يحكمنا ، ومن سماته أن يأ كل بنيه، تماماً كما يأ كل خصومه ومعارضيه .

إذا صح مازعمته أبولق التنظيم الطليعى فى قضية علصريان ، فإنها جريمة لا غفران فيها ، إذ كيف يحدث هذا العبث ونفاقستان مثخنة بالجراح من عار الهزيمة ، ويبذل بنوها كل جهدهم وكل عرقهم ويشدون بالأحجار على بطونهم لتوفير الدانق والسحتوت من أجل المعركة والتزود بالسلاح والعتاد ، ويحدث ذلك من ماركسى يدعو مذهبه إلى الجد والخشونة ولا يعرف الترف وميوعة الحياة ...

ولم يكن السيد علصريان وحده فى ميدان الترف والبهجة وإشراقة الحياة ، إذ كان من بين الوزراء وزير الباليه والموسيقى والغناء ، طالب عقب الهزيمة مباشرة بمليون دينار وهى تكاليف مسرح للجليد يتزلق عليه الراقصون والراقصات ، من باب الترفيه عن المواطنين الذين جرحت عواطفهم الكارثة ، ومالها من علاج إلا هذا العلاج !! ...

يريد الوزير الثائر الفائر مسرحاً للجليد فى الوقت الذى لم تجف بعد دماء إخوان له استشهدوا فى ساحة الوغى ، وتطالب دماؤهم بالثأر

لا بالرقص ، ويصرخ الوطن كله بالجهاد لا بهز البطون والأجساد...

ومن عجب أن تكون الهزيمة بلسماً للعواطف وتكأة لبسطة النفس وراحة البال . فتقيم الحكومة بعد الكارثة بمائة يوم « بالتمام » مسابقة للجمال في « بلاج » معروف من ثغر نفاقستان في أعطاف حفل صاخب بالموسيقى ورقصات الغاب ، يحييه الشباب الخنثى حتى مطلع النهار وكأن الذين طوتهم الصحراء من جند وضباط لا يستحقون ولا ستة من حداد!

في الوقت الذي كان « المير » الساحر ينتحر حزناً على مصير بلاده ، وتدهمه الأمراض من الكمد الذي أصابه ، كان أهل الثقة من رجاله يهربون الطنافس والرياش أو يسعون لبيع بلادهم في سبيل السلطان، أو يفكرون في تشييد ساحات الرقص والمرح والبهجة والسرور ، أو يقيمون مسابقات الجمال بالدف والمزمار ، ولو كانت نفاقستان كلها تدمى عيونها من البكاء لتلك الهزيمة النكراء ، ولو كان في كل بيت شهيد هنا أو شهود هناك .

نفافستان في ٢٩ سبتمبر

يا صاحبي

لا تعيرهم بهزيمتهم ، فإن هذا الشعب قد عرف النصر الحاسم في كثير من المواقع الخالدات ، وليس هذا الشعب فريداً أو وحيداً في ميادين الهزائم المنكرات ، فقد اندحر قبله الفرنسيون والألمان والروس واليابانيون والصينيون والإنجليز ، وكانت هزائمهم شاملة منكرة قاطعة مفجعة ، غير أنها شعوب حيـــة قد استطاعت أن تسترد بحيويتها كل وجودها الضائع ، وشمخت برؤوسها عالياً ، وأصبحت بعد سنوات من الهزيمة والاندحار أغنى وأقوى مما كانت مرات ومرات .

أرجو أن تقرأ تاريخ نفافستان ، فجله في ميادين الوغى والنزال قدوة ومثال ، ودع عنك حكاية الهزيمة التي لحقت بهذا الشعب في فجر التاريخ من آلاف السنين ، فقد استعمل عدوهم المغير ما استعمله الأمريكان في حرب اليابان . . . استعمل القنابل الذريات ؟ ! . . .

أليست قنابل ذريات أن يواجه جيش نفافستان ، وكله من المشاة الراجلين كتائب العدو المغير تستقل عربات تجرها الجياد ولم تر نفافستان من قبل العربات والجياد ؟ . . .

ثم انظر بعد أن صنعوا عربات لهم ودربوا جياداً تجرها كيف كان نصرهم على عدوهم العنيد ؟ وكيف تحررت بجهادهم لا نفافستان وحدها ، بل تحرر كل ما حولها من شعوب !

وقد ساءنى أن خلت كتب التاريخ التى توزع على التلاميذ والطلاب من واقعة العربة والجواد ؛ فقد أغفلها المؤلفون عامدين لأن فيها هزيمة يرونها عاراً لا ينبغى أن يسجل فى التاريخ ، وإنك لتعجب حين تقرأ كتب التاريخ عندنا فلا تجد إلا المفاخر والأمجاد ، مع أن التكنولوجيا التى عالج بها أجدادنا آثار هزائمهم ، والأساليب التى اتبعـوها مع عدوهم فيها قدوة لنا هذه الأيام ، وما أحوجنا إلى القدوة وخاصـة فى هذه الأيام ...

إن الكتب التى تقدم للناشئة قد أغفلت كثيراً من حقائق التاريخ ، وهو أمر مقصود من السادة المؤلفين ، وهم عادة من المعلمين ، وهذا عيب خطير فى تربية الأجيال الصاعدة ، فغداً يكبر الصبية ويقرءون كتباً أخرى فيدركون كيف كان أساتذتهم يدلسون ! وإنه لأمر محزن أن يهون المعلم المؤلف فتسقط الهالة التى له فى ضمير الشعب ، والشعب يراه رسولا كما زعم شاعرهم الكبير ...

وما أظن الذين يحكمون نفاقستان اليوم يضيرهم أن تسجل أحداث التاريخ كما رواها التاريخ الصحيح ، فإن فى العصر المظلم أو فى الهزيمة النكراء جوانب جديرة بالدراسة وفيها من العبر الشىء الكثير، ويحسن أن يعرف الطفل تاريخ بلاده بلا تهريج أو تهويش .

معذرة ، فقد نسيت أن مؤلفى هذه الكتب من نفاقستان !

وإن العيب الذى أذكره لك عن كتب التاريخ ، تراه أيضاً فى كتب

أخرى توزع على الصغـــار فى مطالع كل عام ، وقد قرأت فى كتاب حديثاً رائعاً ممتعاً عن حياة العامل والفلاح بعد ثورة تفاقستان ، ووصفاً جميلاً عن هذه الحياة فى المصنع والحقل والبيت والقرية ، تماماً كما يعيش العمال والفلاحون فى ريف الإنجليز والفرنسيين ! ... وهذا بالقطع تزوير للواقع الملموس ، وإنه لأمر خطير أن يقرأ الأطفال حياة لايعيشونها ، فإن الأكثرية الغالبة من هؤلاء الصغار من أبناء العمال والفلاحين ، وكيف يكون أثر هذا النفاق فى عقولهم القاصرة ونفوسهم التى لم تتفتح بعد للحياة ، وهم يقرءون هذه الأكاذيب فى كتاب رسمى توزعه الدولة وفيه كثير من الأوصاف غير صحيح ؟ ...

وأذكر أنى قرأت كتاباً يدرسه ابنى يعنى بالتربية الوطنية ، وكان ذلك من عشرين عاماً ، وكان الكتاب يروى الجميل والجليل فى حياة تفاقستان منذ فجر التاريخ إلى الأيام التى نعيشها ، وكان هناك فصل عن ثورة مدنية اشتعلت فى البلاد ضد الاستعمار منذ أكثر من خمسين عاماً بزعامة شيخ عظيم وضعه العالم كله فى صدور التاريخ ، فإذا بالأساتذة مؤلفى الكتاب يتحدثون عن الثورة فى إسهاب ، ويذكرون أسماء من عاصروها وشاركوا فيها إلا اسم الشيخ زعيم الثورة التى فجرها وقادها ونفاه المستعمر مرتين أثناءها ، وعاد إلى وطنـــه فأشرقت الشمس بعودته ، فلما قضى مالت الشمس بضحاها ...

إن هؤلاء الأساتذة المؤلفين الذين ينافقون الثورة بتزوير التاريخ ، وتزوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية التى يعيشها التلاميذ من أبنـــاء

الفلاحين والعمال ، فى مقدورهم أن يثنوا ما شاء لهم الثناء ، ويمدحوا ما شاء لهم المديح ، دون أن يتورطوا فى الكذب والخداع ...

إنهم يستطيعون التزلف بكلمة الحق يسجلونها فى المنجزات العظيمة التى حققتها هذه الثورة ، فإن هذه الثورة — بالرغم مما يراه خصومها فيها — زاخرة بكثير مما ينبغى تسجيله بحذق ومهارة ، فإنها لم تغير وجه نفاقستان وحدها ، بل غيرت وجه شقافنستان وتوريطستان ، وعشرات من شعوب أخرى ، ولولا ثورتهم هذه ما تغيرت وجوه الحياة فى تلك البلاد .

لقد كان « المير » الساحر قدوة فى الجهاد والكفاح ...

ثم كان لشجاعته وتحديه قوى الاستعمار ، وانتصاره عليها بإصراره وعناده ، أعظم مثل لشعوب مختلفة متخلفة أذلها المستعمر وامتص دماءها مئات السنين ، فثارت هى الأخرى وطالبت بحقها فى الحرية والاستقلال ولم تستطع قوى الاستعمار الضخمة أن تقف فى وجه هذه الشعوب التى تأثرت ثورة نفاقستان ، وسارت سيرتها فى الجهاد ، وأعلنت العصيان وتمردت على مئات من سنى الذل والاستعباد ، وإذا هيئة الأمم تضم اليوم أكثر من أربعين دولة جديدة تحررت من الاستعمار وما كان يجرى فى ركابه من أدوات الظلم والاستغلال .

لقد كانت ثورتنا فى هذا المجال ثورة رائدة بلا جدال ...

إن كتب التلاميذ يجب أن تتضمن مثل هذه الحقائق ، فهى تشريف لتفاقسان وأهل تفاقستان ، وحسنة « لليرِ » الساحر إن أردنا حساب الحسنات ، أما أن تحشى الكتب ، وحتى كتب النحو ، والجغرافيا والهندسة والحساب ، بالدعاية الفجة والتزلف « لمير » تفاقستان ، فذلك ليس علماً ، وليس له من نتائج فى الدرس والتعليم إلا تنشئة الأجيال على الفساد ، وتربيتهم فى أجواء من النفاق والرياء ...

نفاقستان فى ٢٦ سبتمبر

يكاد كل جواب لرسالة من رسائلى يتضمن ألف اعتراض على ما كتبته لك من أحوال بلادنا الجميلة، فمرة تتهمنى بالنفاق، وقد فوتها لك، وطلبت منك مازحاً ألا تنسى أنى أعيش فى نفاقستان! ...

ثم تجىء اليوم فتعيب على نفاقستان تدخلها فى شؤون ما حولها من دول وشعوب، وتقول كما يقول خصوم «المير» الساحر الخطير، أما كان أولى بنفاقستان أن تغلق على نفسها الأبواب، وتوظف مئات الملايين من الدنانير التى بذلتها هنا وهناك لصالح أهل البلاد! أما كان أجدى عليها أن تستغل هذه الملايين فتطور بها ريفها مثلا أو تزيد من الصناعات أو تفتح المدارس والمشافى والمستوصفات! أو تبذل هذه الملايين فى استيراد ما تحتاج إليه من حاجات ترفعها إلى مقام الدول المعاصرات! أو تعمل بهذه الدنانير على خفض الأسعار التى يصرخ من ارتفاعها لا الفلاح والعامل وحدهما بل يضج منها أهل اليسار . .

وأقسم إنى فيما كتبت لك لا أنافق أحداً أو أزعم لقيادة اليوم فضلاً أو يداً، وإنما أقسم إنى أسجل ما أراه واحسه أو أسمع به من هذا أو ذاك، ولو شئت أن أمضى يوماً مع حملة القماقم وفريق الطبلة والمزمار، لكنت واحداً ممن استرخت حياتهم ومضت نعيماً مقيماً، لا يفيقون من السعادة ولا يحسون أبداً حاجة أو ترام يوماً فى حرمان .

إنما كتبت لك كمراقب معاصر لحياة هذا الشعب قرابة خمسين

عاماً ، ورأى فى دنياه كثيراً من الهم والبلاء ، واعتصرته أحداث وجيعة عامة وخاصة ، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يترك فى نفسى بغضاً لهذا البلد أو كراهية لناسه حتى أولئك الذين أساءوا إلىّ فى عنف وقسوة، لم ينطو صدرى نحوهم على سخط أو ضغينة ، ويبدو أننى قد تطبعت بطباع سائر المواطنين فى نفاقستان ، فإن ذاكرتهم ضعيفة لا تختزن الإساءات أو تجتر الإهانات ...

وأعود إلى مناقشة ما ذهبت إليه وسميته السياسة الفطيرة التى انتهجناها بالتدخل فى شؤون الجيران ، والتى ترتب عليها إسراف فى الأموال العامة كانت نفاقستان أحق بها من أولئك الجيران .

وأحب أن تنهم ، أنه مهما يختلف الناس فى أمر هذه السياسة ، فإن ذلك لم يعطل نهضة البلاد فى كثير من جوانب الحياة ، ولا عليك من آلاف الملايين من الدينارات التى اقترضتها نفاقستان، فإن خيراتها كفيلة برد الدين طال الوقت أو قصر الزمان ، وعلى أى حال فان هذه البلاد لم يمض عليها جيل إلا وكان الاقتراض سمة من سمات حا كيها ، وإن ترتب على بعض الديون غزوها واحتلالها فى يوم من الأيام...

ثم أنظرُ إلى العاصمة فأجدنى فى أحياء شتى منهـــا قد ضاعت قسماتها المضطربة القديمة ، وأرى جديداً قلب الأشكال رأساً على عقب، فأنشئت ميادين فسيحة وشوارع عريضة وشيدت الناطحات الشاهقات وخاصـــة تلك التى تطل على نهرهم الـكبير ، وقامت الـكبارى

فوق الشوارع والميادين يستخدمها الراجلون حتى لا تؤذيهم زحمة الطريق .

ثم أنشئت عشرات من دور السينما والمسارح إلى جانب الإذاعة والتليفزيون ، وهى كلها وإنْ كانت من ملاهى الحياة إلا أنها وسيلة تضاف إلى وسائل التثقيف والتعليم ، وشيدت مئات المدارس بالإضافة إلى الجامعات والكليات التى افتتحت فى معظم المدن الكبيرة لاستيعاب عشرات الألوف من أبناء تفاقستان ، وجرى طريق ثعبانى مسفلت على شاطىء النهر يمسك بالعاصمة من الشمال إلى الجنوب .

ولهذا الطريق قصة وتاريخ ، فقد قدمت الثورة وزيراً سابقاً نابهاً رائداً من رواد هندسة الرى ذا سمعة عالمية ، قدمته إلى محكمة الغدر لأنه غدر بالوطن فأنشأ نحو عشرين متراً من هذا الطريق ، وسخروا منه حين قال إنها تجربة لتهذيب النهر العظيم ! فجاءت الثورة المباركة التى عاقبت هذا الوزير فلم تهذب النهر فحسب بل أدبته تأديباً وقست فى هذا التأديب فكتمته بهذا الطريق الثعبانى وطوله نحو عشرين ميلاً أو يزيد ؟!

ثم ماذا يا صديقى؟

أنظرُ فأجد القوم — بالرغم مما ضاع فى مشاكل الجيران — قد أقاموا السدود العاليات والمجمعات الصناعية الضخمة ، وتبذل اليوم الجهود لتحضير نحو خمسة آلاف قرية وتزويدها بالماء والكهرباء ، وبذلك

يردعليك العهدالجديد فيما سبق أن عتبته على القوم في رسائلك بأنهم اهتموا بالحضر وأهملوا الريف ، وزعمت أن ماصرف على الجيران، البعيد منهم والقريب ، كان قميناً بأن ينقل ريف نفسافستان إلى شيء قريب جداً من ريف الإنجليز والفرنسيين والأمريكان .

قد تستطيع أن تصيب في قضية أنوفنا التي دسسناها في شؤون الجيران، الطريقة الغوغائية التي اتبعت في سياسة التدخل عند هؤلاء الجيران ، فقد وظفنا الجيش ومال الشعب ورجال المخابرات في محاولات مضنية لقلب نظم الحكم هنا وهناك ، ضد القريبين من الجيران وعند البعيدين آلاف الأميال ، وذلك سعياً وراء صيت يعم الآفاق ، وجرياً وراء سلطان على المنطقة يزرى بسلطان حكامها من ملوك ورؤساء وأمراء ، وكنا للأسف الشديد نخطب في الناس وندعو إلى الثورة على هؤلاء الحكام ، ونحاول أن نشد من شعورهم وننتف ذقونهم ! ! ...

ولم تجد دعوتنا بل ذهبت في الهواء وضاع مال الناس ورجال الناس هباء في هباء !؟ .. ومن سخرية القدر أن أولئك الذين أردنا يوماً أن ننتف ذقونهم كانوا في صدر من أقال عثرتنا حين هزمنا في حرب الصحراء ، وأقبلوا بمالهم يقدمونه لنا ، وعتادهم يزودون به جيشنا ، ونفطهم يضعونه تحت تصرفنا ، وبلادهم يفتحونها لمن يريد منا تجارة أو عملا ، وكل «شعرة» فيهم تنطق بنبلهم ، وتعلن عن أرومة أصلهم ، وأنهم لجديرون بأن يكونوا حيث هم ، سدنة الدين وملاذ المؤمنين .

ترى هل يكسف كل ما ذكرته إشراقة الحياة فى نفاقستان ؟

إن عهد « المير » الجديد الذى أراد أن يصحح الصحيح قد بنى جيشاً قوياً لا يتطلع ضباطه إلى وظائف المدنيين ، بل ترنو أبصارهم إلى نصر يرد على الوطن كرامته ويعيد إليه ما سلب من أرضه الغالية ، ومعظم جنود هذا الجيش من الشباب المتعلم بينهم فئة كبيرة من المثقفين ، تفيض وطنية وتدين بالولاء المطلق لبلادها وحدها ، لا تشرك فى هذا الولاء أحداً ... شباب حر لا يعرف الخوف ، فإن أشنع ما يواجه الجيش أن تؤلف فرقه من مواطنين يحكمهم نظام يبث الخوف فى قلوبهم ، ويهددهم بالسجون والمعتقلات ويحاسبهم على الإشارة والهمهمة ، ويجعل من الإبن عيناً على أبيه ومن الأخ رقيباً على أخيــــه ، ويحل بذلك أواصر الأسرة ، ويقطع عروق المحبة ، وينشر بين الجماعة الكراهية والبغضاء .

إن العهد الجديد الذى انتفض ليصح الصحيح يعلم أن الشعوب لا تُحارب بقوة وإيمان إلا إذا كانت تحارب من أجل فكرة ، ومن أجل الذود عن مثـــل تؤمن بها ، وفى سبيل الحفاظ على حريتها وكرامتها ، وسعياً وراء التمكين للحرية والعدالة ، وما حارب شعب وانتصر افتقد هذا كله أو بعض هذا كله !...

وإننا لنقرأ التاريخ ، فنجد أن النصر دائماً محقق فى البلاد التى يعيش مواطنوها أحراراً فى صحافتهم وفيما يكتبون من كتب وفيما

يذيعون من آراء ... والهزيمة دائماً صنو لكل شعب يحكم بالحديد والنار ويسيطر على حياته الخوف ... والمثل قريب ، فقد انتصرت إنجلترا وفرنسا وأمريكا على إيطاليا وألمـــانيا واليابان فى الحرب الأخيرة ، والدول الأولى بجتمع مفتوح ، والثلاث الأخرى بجتمع مغلق كثير المعتقلات والسجون !...

صدقنى أيها العزيز ، إنى لا أظلم عهداً مضى ولا أنافق عهداً يقوله صاحبه إنه يريد أن يصحح الصحيح !...

نفاقستان فى ٢ اكتوبر

لقد تسلمت المجموعة التى أرسلتها من صحف شقاقستان ، وأخذت أطالعها بنهم ، وقد كدت أصاب بالدوار وأنا أقرأ مقالاتها وأقرأ فيها خطب وتصريحات المسؤولين من رجالكم . عبارات وتعبيرات وألفاظ ما أنزل الله بها من سلطان ، واشتقاقات من اللغة غريبة مشدودة من شعرها كما يقول الفرنسيون .

وقد استوقفنى وصف لدولتكم يلح فى نشره كل يوم كتابكم ، فهم يزعمون أنها وحدها الدولة « التقدمية » وليس لها نظير فى دول المنطقة ولا يطاولها فى « التقدمية » حتى دول الغرب من أوربا ، إذ أنها — هذه الدول جميعا — دول « تأخرية » ؟

ولا أفهم أن تكون دولة تقدمية تلك التى يشرد فيها الأحرار ، وتلجم فيها ألسنة المثقفين ، وتقصف فيها الأقلام إلا أقلام المأجورين من حملة الطبول والمزامير ! .

ثم تقول صحافتكم فى غير حياء أو استحياء وهى تدلل على صدق نظريتها ، إن إنجلترا دولة « تأخرية » لأن على رأسها ملكا وتؤلف حكومتها فى النوادى والبارات ! مع أن هذا الملك وهؤلاء الحكام جميعا يُنتقدون فى الحدائق العامة بأقذع ما ينقد به إنسان ، وتقف الشرطة على أمتار من النقد الجارح المقذع ، السفيه فى بعض الأحيان ، لا لتقبض على الخطيب وتجره إلى مخفر الشرطة من قفاه بل تقف على بعد أمتار لتحمى هذا الخطيب من خصومه إن أرادوه بسوء ...

ولا أفهم كيف توصف هذه الدولة « بالتأخرية » وكل يوم يصدر فيها مقال أو منشور أو كتاب ينقد بعنف النظام السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى ، مع أن هذه الدولة بنظمها جميعاً فى صدر العالم سياسة وكياسة ومالا وجاهاً . . . ولكنها الحرية التى تسمح لكل مواطن بأن يعبر عن رأيه ، سواء كان رأياً صائباً أو خاطئاً . وبصرف النظر عن كونه رأياً هداماً أو بناء ، فالحكم هنا للرأى العام الصاحى ، وللقانون الذى ينظم أمور الناس ، وليس للحاكم المطلق الذى لا منطق له إلا منطق العصا والكرباج ! ...

إن هذه الألفاظ والعبارات والشعارات التى تزدحم بها صحفكم صباحاً ومساء لتثير من تفاهتها الغثيان ، ومما يزيد الأمر سوءاً أن كل أدوات دعايتكم من إذاعة وتليفزيون وأوراق وكتب ، وحتى الكتب المدرسية ، قد حشيت بهذ الكلام الذى يدير الرءوس ولا تفهم منه الرءوس شيئاً . . .

إنهم — عندكم — يرون فى نظامهم أنه القدوة والمثال . ويرونه نظاماً تقدمياً ! ومن العجب أن يوصف نظام بالتقدم وهو يؤثر الجاهل على العالم ، والمريض على السليم ، والضعيف على القوى ، والمتبت على الحازم . . . ويعتبرون هذا النظام علاجاً لأوجاع الشعب ، وأنه الدواء الوحيد المفيد إن كان الغرض البرء من السقام . . . وصدقنى أنهم يعالجون المعدة بدواء العيون ؟ ويبترون الأذن ليشفوا اليد من السرطان ! ...

إن شعبكم يعيش فى متاهات ، يقول له الحاكم شيئاً ويرى الشعب الواقع شيئا آخر ، يقول إن صحافته حرة لأنها صحافة الشعب ، ثم يندر أن نجد فى صحافة الشعب هذه ، مقالا ينقد وزيراً ، كأن وزراءكم منزهون عن الخطأ ، لا يكبو أحدهم فى هفوة ولا يقع فى غلطة ، مع أن هفواتهم وأخطاءهم ، وأحياناً جرائمهم تفتلع العيون .

ويقولون إنهـــم حرروا الصحافة من الاحتكارات . فإذا هذه الصحافة تحتكرها فئة من الناس لا يدخل عليها دخيل ، فهذه الفئة وحدها قد فرضت على الناس فرضاً لتكون هى عين الشعب ولسانه وأمله ، العين التى لا تبصر واللسان الذى لا ينطق ! والأمل الضائع فى الشعارات وللتاهات !

والله الله لو شذ صحفى منهم برأى يخالف الشعارات ، فإن قرار فصله جاهز ، ومقعده فى البيت حاضر ، وليس له بعد ذلك رأى يبديه ، فقد حطم قلمه وطوى قرطاسه ، وأصبح شـــأنه شأن من أبى النفاق من من القادرين على الكتابة والتجويد فيها ، وحرمهم نظامكم هذا الحق لأن الرؤى عندهم واضحة ، والنظام لا يرحب بالمبصرين الذين لا تغرهم الشعارات ولا تضلهم المتاهات . . .

صدقنى ، اننى لم أفهم معظم المقالات التى تضمنتها الصحف المختلفة التى أرسلتها إلى ، وبالرغم من أننى محسوب على المثقفين فى تفاقستان الذين درسوا وقرءوا العمر كله ، من الكتب السماوية إلى ماركس ولينين ،

فإن فهمى لهذه المقالات قصر عن استيعاب مضمونها لما فيها من حشو الـكلام وغريب العبارات.

بالله هل فهمت مايعنيه أحد كتابكم بقوله إن شعبكم يعيش« فى تلاحم عضوى بين الأممية والاشتراكية، وأن المصالح الجذرية يجب أن تنطوى تحت لواء سياسة اشتراكية طبقية أممية تحقيقاًللنضال التحررى ؟....»

ولست أدرى لمن يكتب هؤلاء الصحفيون إذا كانت الصفوة الواعية فى المنطقة يدق عليها فهم الأسلوب العاجز عن بيان محتويات الصـدور ؟ فـكيف يفهم شعبكم وشعوب المنطقة هذه الطلاسم وثلاثة أرباع السكان فيها أميون لا يقرءون ولا يكتبون ؟ ...

ولأن هذا أسلوب صحافتكم وإذاعاتـكم وتليفزيوناتـكم وبعض كتبكم المدوسية ، فإن كل هذه الأدوات لم تؤثر فى نفوس الناس ،ولم تنقل أفـكارهم إلى جديد أو تقربهم إلى نظامكم العنيف ، ووقفوا حيث هم جيلا أو بعض جيل يقرءون ولا يفهمون ، وقد لا تفوتهم النـكتة والسخرية بهذا الذى يقرءون ولا يفهمون ! وبقى صحفيوكم وأدباؤكم ورجال الدعاية عندكم معزولين عن الـكتلة الشعبية الضخمة ، لأن لغتهم غير لغة الناس ، وأشـــد اللغات تأثيراً فى النفس هى اللغات التى يفهمها الناس .

أحمد الله أن هذا الذى يجرى عندكم لم يعدله مـكان فى حياتنا ،

فان الرءوس الكبيرة التى تدير صحافتنا قد مارست الصحافة قبل قيام الثورة ، وكان بعض هؤلاء الصحفيين من أعلام الصحافة فى عهد الملك البغيض، وكانوا يحملون الأقلام الحرة ، ولم يرضوا توجيهاً فيما يكتبون، أو يقبلوا أن تخضع أقلامهم لرقيب ، وقد فضل بعضهم التعرض لأشد الأذى على أن يكون بوقاً للقصر وأذنابه ، وبالرغم مما أغروهم به من مال أو رتب ونياشين ، فقد أبوا أن يكونوا مطايا السلطان، فصودرت صحفهم وقصفت أقلامهم ، وبعضهم دخل السجون . . .

إنما أعنى من أعرف من كتاب الصحف ، ولا أعنى تلك الناشئة التى ظهرت فى غفلة من الزمن ، وحاولت أن تسيطر على صحف تفافستان وقتا ما ، بالعبارات الغريبة ، والأفكار التى تنفر عامة الناس فضلا عن خاصتهم ، وتلبس رداء النازية يوماً فتدعو إلى حمامات الدم ، والماركسية يوماً آخر فتحض على الكفر بالله والعياذ بالله ، وأن هؤلاء « الحرافيش » كما يسميهم مؤرخهم القديم ، قد استطاعوا أيام شعوريان وسعشريان وأترابهما من عمالقة العنف والطغيان ، أن يتصدروا الصحف وينشروا فيها ما يحلو لهم من السخافات ، والتفاهات ، وعبارات المتاهات ، وفارغ المعنى من الشعارات . . .

ثم اختفت هذه الأقلام الناشئة بأفكارها الصبيانية وشعاراتها المستوردة حين صح الصحيح ، وبدأت نافذة الحرية توارب ثم فتحت.

«ضلفة» منها ، وكم أتمنى أن تفتح «الضلفة» الثانية ليدخل الهواء نقياً والنور ساطعاً لتَطردَ خفافيش الظلام، ويوقظ النيام، ويفسح الطريق للأعلام، وتُغسل النفوس عما خلفته بطانة السوء من أدران ، ويرفع الوطن من هذا الحضيض ، ويرد إلى مكانه العتيد حيث كان وحيث يجب أن يكون، وطن الذوق والرقة . والحرية والعدالة ، وبسطة الرزق ، والإيمان بالله ورسله ، وكل جميل وجليل .

كان يجب أن أرد لك هديتك من صحف شقاقستان بهدية من نفس الحقـــل ولـكنها من التراث الحديث الذى يشغل اليوم كل إنسان ، وهاأنذا أبعث لك بكتاب صدر أخيرا عن جانب مشرق من حياة « مير » نفاقستان الراحل ، الذى كان فى الصدر من جماعة حكم معها نفاقستان نحو ثلاثة أعوام ، ثم انفرد بالحكم خمسة عشر عاما بعد أن نحى أول (مير) للبلاد ومعظم زملائه فى الجهـــاد ؛ ومضى يحكم على مسؤوليته وحـــده ، تعاونه مؤسسات دستورية مستحدثة ، أفسدت طمعها وأسقطت من اعتبارها مراكز القوى ،التى أبت ـــ منذ البداية ـــ أن يكون لهذه المؤسسات أى دور فى سياسة نفاقستان . . .

لقد كان اختيار الشعب لممثليه يفرض على الشعب فرضاً فلا يرشح مواطن لشرف النيابة عن بلاده إلا إذا أجازت البطانة هذا الترشيح ثم تستفتى الأمة فيمن اختارتهم بطانة السوء ، ولم تكن الأمة تملك إلا أن تقول « نعم » ! . . . وبقولها نعم ، تقطع جهـــيزة قول كل خطيب ! . . .

وكى تفهم الكتاب ، يجب أن تعلم الرأى فى مؤلف الكتاب ، فهو من صحفيى المدرسة القديمة ، إذا قيست الجدة والقدم بسنوات العمل إذ عاش صحفياً نابهاً لامعاً أرقم قبل تفجير الثورة بسنوات وسنوات.

ويزعم خصومه أن صيته نبع من صلته « بالمير » الساحر ، وأنه

استغل هذه الصلة ، فاحتكر الأخبار الضخمة المثيرة لصحيفته وهى أقدم صحف نفاقستان ، وكان ينشر فى صحيفته هذه أفكار « المير » قبل أن يضعها « المير » موضع التنفيذ ،وهذا الذى يقولونه عنه شهادةللرجل على شطارته ، وليست مأخذاً فى تاريخه ، فلو لم يكن نابهاً ذكياً قارحاً ما استطاع أن يبلغ من قلب « المير » هذه المكانة ، حتى ليؤثره « المير » بكل ما يقويه ويزكيه ويضعه فى القمة من صحفيى نفاقستان بل يطلب إليه أحيانا أن يدبرأمره فيما اعتزم من أمور ، ويأخذ برأيه فى اختيار الوزراء وكبار العاملين ، ويصغى بالمودة لمشورته وهو يتهيأ لإصدار القرارات وسن القوانين . . .

وقد زعموا أن فيه شرا . وينكر ذلك أصفياؤه فيزعمون أن الرجل حمى فئة كثيرة من رجالات الماضى وأحرار العهد القديم . حماهم بصلته تلك من طغيان سمشريان وشموريان وأصحابهما من ذوى السلطان فى ذلك الزمان ، وحفظ عليهم ماء وجوههم بعد أن صادروا عقاراتهم وأملاكهم ومصاغ زوجاتهم وكل ما يملكون ، بغية أن يعيشوا حياة التسول أو يموتوا جائعين .

ولا نستطيع أن ننكر فضل هذا الرجل على الصحيفة التى تولى شئونها ، فقد جاء - كما جاء مؤسسوها من قبل - بجديد لا يعرفه الجيل وخطط لها تخطيطاً بديعا فى الإدارة والتحرير ، وبنى لها داراً ضخمة ضمت أحدث آلات وأدوات الفن الصحفى الأصيل ، حتى ليندر أن

يكون لها فى المنطقة قرين أو نظـــير ، وأصبح البناء الشامخ مزاراً للمواطنين ، وموقعاً سياحيا يختلف إليه الناس من كل فج بعيد . ليروا أثراً فى هندسة البناء والتعمير وفى ميادين الفكر والتوجيه .

ولا شك أن صلة صاحبنا « بالمبر » كان لها أثر ملموس فى استقلال الرأى الذى تفرد به دون زملائه ، والتطرق إلى موضوعات فى سياسة الداخل والخارج ما كان لغيره ، مهما أوتى من شجاعة ، أن يطرقها أو يعالجها أو حتى يدور حولها ، وقد أكد بذلك مقام الصحيفة عند قرائها ، وأبرز من جديد رسالتها ، فقد كانت هذه الصحيفة ، فى سنوات ما قبل الثورة ، لسان الدولة ورسولها الرسمى عند المواطنين .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذا الصحفى أديب مثقف على علم وفهم بمجريات أمور العالم ، وهى صفة اكتسبها قبل الثورة بالمهام الصحفية الكبيرة التى كلف بها صائفاً وشاتيا ، واطلع أثناءها على حياة الأمم والشعوب بل أكثر الأمم والشعوب . . . والدنيا كتاب ، وكل بلد صفحة فيه ، وما أكثر ما قرأ هذا الكاتب من صفحات !

وأنا زعيم بأنه الصحفى الوحيد الذى لم ينافق أحدا قط فى عهد المبر الراحل الكبير ، وفيم النفاق وهو الصديق القريب من قلب « المبر » ثم هو مؤمن شديد الإيمان بكثير جداً مما كان يراه « المبر » الساحر فى سياسة البلاد ، بل ربما كان له نفسه دخل فيما صدر من قرارات غيرت وجه نفاقستان ، بل لعلى أزعم صادقاً أن هذا الصحفى كان يقف ببابه

المنافقون ، يترضونه ويتزلفون إليه ، بعد أن عرف الناس ما كان له من مقام مقدور فى اختيار الوزراء والتعيين فى الوظائف المرموقة فى البلاد .

لعلك تدهش من هذا البيان الطويل عن مؤلف الكتاب ، ولكنك لا تعلم أنه حين يكتب تاريخ هذه الفترة من حياة البلاد ، فسوف يكون لهذا الصحفى من السيرة فصل طويل ، فقد عاصر فيها دنيا نفاقستان منذ الهزيمة الأولى قبل خمس وعشرين سنة حتى الهزيمة الثالثة منذ ست سنوات ، وكانت يده فى « العجين » معظم ذلك الزمان .

أما الكتاب فيتحدث عن الجوانب المشرقة فى صلة « المير » الراحل بأترابه من العظماء ، ويكشف حقائق جد ممتعة فى تاريخ « المير » الساحر عرضها صحفينا عرضاً رائعاً كأمهر طاه فى كتابة السير وتحليل الأحداث أجمل تحليل !

ولا أريد أن أحدثك عن محتويات الكتاب ، فهو بين يديك ، وستقر معى أنه جدير بالقراءة ويستحق منا الانتباه الكثير .

وقد أعلن الكاتب الأديب أنه سيتوافر على إنشاء تاريخ « المير » الراحل الخطير وطرائق نظره للأمور ، وسياسته فى معالجة شؤون الداخل التى غيرت مفاهيم الحياة فى نفاقستان ، وإنه لقادر على ذلك بما تهيأ له من ظروف مكنته من معرفة كل شىء يدور حول « المير » الصدق

والكذب . . . العـــدل والظلم . . . صغار الكبار وكبار الصغار ! . . . »

وكم أنا مشفق على صحفينا من تأليف هذا الكتاب . . . أنه سيزحنا بفصول عن القمر والشمس ، فهل فى مقدوره . أن يصف لنا ما أصابهما من خسوف وكسوف ؟

أنه سيسترسل فى قضايا الحرية التى نقلت شعبا من الأسر إلى الانطلاق ، ورفعت هامات المواطنين بعد أن حرزتها من الذل والاستعباد ، فهل فى مقدوره أن يفصح كيف يتفق استرساله المشرق فى قضايا الحرية مع إفراج « صـــنير » تفاقستان الجديد عن آلاف السجناء والمعتقلين السياسيين ؟

وهل يكسف استرساله الممتع فى قضايا العدل ، قصص التعذيب التى لقيهـــا أحرار تفاقستان ولم يشهد لها التاريخ مثيلا إلا فى حكم النازيين والفاشيين وحكم قاسى القلب الطاغية ستالين وصفيه بريا وقد بلغ عدد ضحاياه بضعة ملايين ؟ . . .

وإذا كتب صاحبنا الصحفى النابه الذكى الأرقم هذا الكتاب « وطبل للقمر وغنى للشمس ، وذكر العدل ومقوماته ، والحرية ونسماتها وتحدث عن النهضة الشاملة ، وفسر العبقرية النادرة ، وجعد بما كتب إلى السماء ، فهل يا ترى يصح الصحيح ويؤذن لنا بنقد هذا الكتاب ؟ ولو فى كتاب . . .

يقولون إن فى تفاقستان اليوم تكافؤ فرص . . . ويقولون أيضاً ، إن الناس فيها سواسية كأسنان المشط ؟ . . .

فليكتب صديقنا الذكى الفطن ما يشاء مدعما ما يكتب بالوثائق والأسانيد ، فنحن قادرون أيضاً على الكتابة ولن تعوزنا الوثائق والأسانيد ، بل ما أكثر ما تحتوى عليه جعبتنا من وثائق وأسانيد !! . . .

نفاقستان فى ١٦ اكتوبر

عدت أمس من « وردستان » بعد زيارة خاطفة استغرقت يوما ، فوردستان كما تعلم ، على بعد ساعة بالطائرة من نفاقستان ، وأنا دائما مشوق إلى زياره هذا البلد الشقيق ، ولولا مطالب الحياة ما ترددت فى قضاء شهور فى ربوعه الجميلة ، فأنت فى وردستان تستطيع أن تتنفس دائما هواء نقيا يحمل لك الصحة والعافية عبر البحر والجبل ، وأنت فى وردستان تعيش مع قوم لا يعرفون الخوف ، مجاملين حتى لتظنهم من نفاقستان ! عندهم حصيلة ضخمة من عبارات الترحيب ، وفى هذه العبارات حرارة أحيانا ، إلا أنها فى أكثر الأحيان تلقى بلا وعى أو تفكير ...

وكل شىء فى « وردستان » محبب إلى النفس والقلب ، فالجمال طبيعة هذا البلد ، والكرم - إذا صح الكريم - طبع فيه ، وهم يأخذون الحياة فى سعة وترف ، ولم يكن ذلك دأبهم من عشرين عاما ، فقد كانت العاصمة مثلا أشبه بقرية جميلة ، تفاخر بخمسة ملاه وبفندقين أو ثلاثة ، وكان أجمل ما عندهم فاكهتهم ، ثم حدث فى السنوات العشرين الماضية أن أثرت النظم السياسية التى سادت نفاقستان وشقاقستان وتوريطستان فى تطور هذه القرية الجميلة . إذ اهتبلت الفرصة وفتحت صدرها لكل ألوان الأنشطة التي قضى عليها فى تلك الدول الثلاث ،

سواء كانت فكرية أو اقتصادية أو اجتماعية، فانتعشت القرية واتسعت آفاقها، وتطورت إلى مدينة صاحية لا تنام، حرة لا تعرف العسف والطغيان، يتعايش فيها الناس مهما تختلف نظرتهم السياسية أو الاجتماعية أو الدينية، وإذا بنا نهرب إليها كلما أعوزنا الهواء النقي أو الكلمة الحرة، أو السعي وراء الرزق العريض.

ويوجد اليوم في عاصمة « وردستان » أكثر من مائة ملهى ومثلها من الفنادق الفخمة، وتدب فيها حركة تجارية منقطعة النظير، وتضم على صغر حجمها وقلة سكانها ثلاث جامعات، ويكاد كل مواطن فيها يملك سيارة. وإن شوارعها أثناء النهار لتكاد أدوات النقل بها وزحمة الناس فيها أن تحجب الضوء والهواء...

وما رأيت في حياتي أشطر ولا أذكى من ناس وردستان. فهم يعيشون في نظام سياسي فريد يرتكز إلى الدين. فلرئيس الدولة ملة، ولرئيس الوزارة ملة أخرى، ثم توزع المناصب الكبيرة والصغيرة الأخرى حسب المذاهب والأديان، وتمضي القافلة في ضوء هذا النظام الفريد الذي لا تعرفه أمة من الأمم ولا نظير له في أي مكان.

ثم تجد في وردستان جماعات تناصر نفاقستان، وأخرى تؤازر شقاقستان، وثالثة تدعو إلى توريطستان، وتمد هذه الدول تلك الجماعات بالمال لتنشيء المؤسسات الصحفية الضخمة، وتنشر الكتب

والمطبوعات المختلفة ، تبشر بمذاهب هذه الدول ، وتقوم عند اللزوم بتأجير الجماعات لتتظاهر فى الشوارع ، وتهتف للدولة التى استؤجرت للهتاف لها ، وقد يتطور الأمر بين المأجورين لهذه الدولة أو تلك ، وتحتدم المعارك بينهما حتى ينزف الدم ويسيل ، ويضطر جند الحكومة إلى التدخل لفض المعارك وإعادة النظام .

وبهذه الشطارة نجح صحفيون مغموورون، وأثرى متعهدو الجماعات المأجورة وعملاء السفارات الثلاث ، وبهذا الذكاء عم الرخاء وردستان بما تدفق عليها من ملايين الملايين من الدينارات ، وانفتحت على الدنيا وفتحت لها الدنيا صدرها ، وكادت أن تكون واسطة العقد فى عواصم دول المنطقة من خليجستان إلى محيطستان . . .

وقد وهب الله وردستان طبيعة لم يهبها لجيرانها ، إذ تقع على بحر كبير ، وتعيش فى أحضان الجبال، وتزخر بالفواكه النادرة والهواء العليل ، وقد جعلوا من هـذه الجبال منازل للسياحة والأنس والبهجة ، وما يصحب ذلك عادة من متاع حلال أو متاع حرام ! . . .

ووردستان « بورصة » المنطقة فى الأخلاق والتجارة والصناعات الصغيرة ، والصحف والمجلات ، وتزوير كتب الغير وبيعها بأرخص الأثمان ، وسوق مفتوحة للصادرات والواردات ، وعالم مجنون بالمال والطعام ، حتى لتبلغ المشهيات التى تسبق طبق الطعام خمسين أو ستين صنفا ، كل صنف منها يغنيك عن الطبق الأصيل .

وليس فى وردستان محظور أو ممنوع ،وليس فى طبعهم وسط . فالبخيل منهم « شيلوك » والكريم « حاتم الطائى » والمؤمن متزمت تزمتاً لا تجده حتى فى « إسلامستان » ، والجيل الجديد متحرر تحرراً تنهار معه القيم والأخلاق ... منهم ناس يرتبطون فى أعمالهم بكلمة تخرج من أفواههم ، وناس يأكلون مال النبي وإن تحصنت قبلهم بألف توقيع وربطتهم بألف ميثاق ! ... ناس خفاف الظل كأنهم من نفاقستان ! وناس ثقلاء على القلب والعين لا تطيق ريحهم مهما يكن نصيبهم من شفافية النفس وسلامة الضمير .

وتزدحم وردستان بأنماط من البشر . بعضهم لاجىء سياسى ، وبعضهم نازح للعمل أو التجارة ، وبعضهم هارب من وجه العدالة ، وكل هؤلاء يجدون الحماية والرعاية ، ويعيشون مع أهل وردستان فى سلام وأمان ، فما توافر السلام والأمان مثلما توافر فى وردستان ...

.

لعلى قد أطلت عليك ، وأنت تعلم بعض ما حكيته لك عن هذا البلد الحبيب إلى النفس ، القريب إلى القلب ... هذا البلد العجيب الغريب الذى لا يمكن أن يكون له مثيل فى دنيانا ، فأنت تدهش لنجاح بنيانه السياسى القائم على المذاهب والديانات ، وتدهش لتفوقه المالى وليس فيه أنهار ولا خامات ، وتعجب لاستقراره الاجتماعى فى الوقت الذى اجتمعت على حياته كل المغالطات والمفارقات .

إن له ميزانية بلا ميزان ! . . . إن المرور فى شوارعه يستقيم فى إطار من الفوضى التى بلغت حد النظام !! . . . وإن القانون يسود بلا قانون . . . وإنك لتسأل أهـل وردستان كيف استقام أمرهم مـع كل هـذه المتناقضات ؟ وإنك لتسمع إجابة واحدة . . .

إنها الحرية التى يفتقدها أكثر الجيران !؟ . . .

نفاقستان فى ٢٣ أكتوبر

يبدو أنك تجيد الكتابة كلما طال عزوفك عنها ، وقد راقنى جداً ما تضمنته رسالتك الأخيرة من الأفكار والمعانى ، وكأنى أقرأ لمونتسكيو أو أقضى لحظات مع فولتير . . .

وإن كنت تتواضع فتحكم على رسائلك — التى أبدى إعجابى بها — بافتقارها إلى جديد فى الرأى والتفكير ! ولست أدرى أهذا من تواضع المغرورين أو هو من غرور المتواضعين ؟ ! . . .

وتنبض رسالتك بالشكوى من الحال فى شقاقستان ، الذى يبدو أنه لا يريد أن يهدأ أو يستقر على حال ، وإن كنت أعتقد أن لكل شىء نهاية ، فشقاقستان ليست وحدها فى هذا الذى تعيبه على المسؤولين فيها ، فقد عشنا تلك الفترة فى نفاقستان ثم خفت موجاتها مع الزمان .

وأنت تشكو هذا الفيض من القوانين والقرارات والمراسيم التى يلاحق بعضها بعضا ، وترى فى ذلك بلبلة لأفكار المواطنين ، وأنت فى ذلك تبالغ « جبتين » فإن الكثرة الغالبة من المواطنين — أى مواطنين — لن تعنيها هذه القرارات والقوانين . لأن هناك ناموساً يطبع الناس على احترام القانون دون أن يقرءوه أو يسمعوا به ، بيد أن الثورات من طبعها ، سواء بيضاء أو حمراء ، أن تغرق رعاياها بقوانين تفرض أفكارها ، وهى دائما تغير وتبدل فيها ، وقلما ينتهى هذا الفيض من القرارات والمراسيم والقوانين إلا حين يمحى من

أذهان الناس أنهم يعيشـــون فى ثورة هوجاء .

ولا مبرر لشــكواك ، فأنت تعلم أن كل نظام يعتمد على الفرد ، ولا سلطان لأحد فيه غير هذا الفرد ، يعنى جدا بالتقنين ليحمى نفسه حتى من اللفتات والهمسات .

إن هذه النظم لا يمكن أن تمضى فى جو هادىء رتيب ، ومن طبعها أن تشغل الناس فى كل يوم بل فى كل ساعة بجديد يشـــد انتباههم إلى هذا الجديد .

وأنك لترى ، كما هى الحال عندكم ، وكما كانت الحال عندنا ، أن من سمات هذه النظم العمل على صرف الناس عن المعنويات والروحانيات إلى أعمال مادية ضخمة تشغلهم وتكون مثار حديثهم مجتمعين أو منفردين .

ومن هذه السمات العناية بشق الطرق العظيمة ورصفها ، وتنظيم الميادين الفسيحة وغرس الأشجار فيها وتزيينها بالنافورات المضيئات ، وإقامة النصب والتماثيل ، ولو رجعت إلى التاريخ منذ حكم الرومان ، إلى نابليون إلى هتلر وموسولينى إلى نظامكم الدائى العتيد ، لوجدت أن النظام الدكتاتورى يعنى أول ما يعنى بهذا كله ، إلى جانب فيض من التشريعات والقوانين التى لا يهتم بها الشعب ، ولا يشغل بها إلا القضـــاة والمحامون .

ونحن فى منطقتنا السعيدة بالنمط الفريد من نظمها ، قد جددنا

وابتكرنا وزدنا على من سبقونا، فاعتنينا عناية فائقة بالأغانى والأناشيد وإنشاء المسارح والتزحلق على الجليد، وكل ما من شأنه أن يرفه عن الشعب ويلهيه عن جد الأمور، وإنك لن تغير من طبع هذه النظم التى عاش طبعها على هذا النحو الذى حكيته لك منذ مئات السنين وسوف يبقى هذا طبعها مئات أخرى من السنين !

لا عليك يا صاحبى عما يدور عندكم فى شقاقستان، وخذ الأمور كما أخذها أستاذى بواب عمارتنا الذى رسمت خطاه سنوات الإرهاب التى عشناها فى نفاقستان.

وتسألنى عن حالنا فى نفاقستان :

إننا فى دور النقاهة مما أصابنا فى العهد الماضى القريب، وأنت تعلم كم نكسة حدثت لنا فى تلك الأيام، لذلك لا تعجب إن طال دور النقاهة مما كنا فيه من عذاب، فكل يوم يسقط عتل ويسقط معه مركز قوة من مراكز العسف والظلم والطغيان، وإن الناس ليخشون أن تقوم فى العهد الجديد مراكز قوة فرقا مما أثر عن المراكز القديمة من سوءات ...

ولست أفهم أن يقوم نظام حكم أو عمل كبير أو صغير وليست فيه مراكز قوى، فمراكز القوى من طبائع الأشياء، والعبرة فى أن نحسن اختيار الرجال، وأن نلزمهم بسيادة القانون، ونحاسبهم حين يتنكبون الطريق أو يرتكبون عملا إدا فى مراكزهم ... عندئذ تطمئن إلى صيانة الأعراض والأموال والحريات.

إن « المير » الجديد يعالج مخلفات الماضى، ويحاول أن يطب الجراح التى أثخن بها الناس من مراكز القوى القديمة، وإن أمامه طريقا طويلة

لتستقر الطمأنينة فى النفوس ، وهو يعلم أن شعبه رواح حال للأسى والهموم ، وفى مقدور هذا الشعب أن يصبر ، وأن يسعد مادام يجد كل يوم تحولا ملحوظاً نحو ما يتطلع إليه من الحرية وسيادة القانون .

أين كنا يارجل ؟

والله لو أن رسالة من هذه الرسائل التى أبعث لك بها وقعت فى عهد الطغمة الباغية فى يد خلبوس منهم لسخطونى ! وآذوا زوجى وبناتى ، وسجنوا أولادى وأصحابى ، وصادروا أموالهم ووضعوهم تحت الحراسة إن كانوا يملكون مالا أو عندهم مايغرى بفرض الحراسات ! وأطلقوا كلابهم من كتابهم ليمزقوا شرفى وشرفهم وينهشوا عرضى وعرضهم ، وقد يتهموننا بالخيانة ولن يعوزهم تزوير الدليل ، ولن يعدموا قاضياً من تنظيمهم السرى يقضى بالحكم الذى يريدون !

وكيف أصبحنا يارجل ؟

إن السيادة للقانون ، وإن النقد مباح ، وإنى لأكتب لك رسائلى ولا تهتز شعرة فى جسمى من الخوف أو الرعب أو القلق على المصير ...

إنما أسجل لك أياماً عشتها قد يرجع إليها التاريخ ، وسوف يرى التاريخ أن فيها بعض الصحيح وليس كل الصحيح لأن تصحيح الصحيح يحتاج إلى مضى أجيال ليعرض سليما مبرءاً من الهوى ، فنحن بشر ، ونحن حين نكتب أياماً عشناها ، فسوف لا يكون مانكتبه فوق النقد والتجريح .

لم يبق للناس من خشية إلا خشيتهم من نظام « المعلومات » فإن الوزير عشريان كان يسيطر على هذا النظام قرابة تسعة عشر عاماً منذ كان حدثاً

لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وقد استغل قربه من «المير» الساحر الخطير وجعل من المعلومات التي كان يقوم بجمعها له دعاة السوء سيفاً يصلته على الناس ، وكان يصغى بالمودة لكل فاسق جاء بنبأ ، ولم يفكر يوما فى أن يتبين وجه الحق فى المسألة ، وكان — كطبع فيه — يميل إلى الشر ، وما أكثر شره الذى لحق بالمواطنين ، فقد زحم السجون بالأحرار ، وفصل الموظفين بالمئات ، وأجاع الفقراء ، وأفقر الأغنياء ، ونسى أن هناك إلهاً يرقب ويرصد ويعد موازين الحساب .

وأنا لا أضيق بجهاز المعلومات إن وليه رجل كفاية وخلق ودين ، حنكته الأيام ، وعصرته الأحداث وزكته العلوم والتجارب ، فإن السلطان فى يد الجهلاء من الصغار يزحم حياة الوطن بالصغار ...

نخاقستان فى ٣٠ أكتوبر

ما لهذه الدنيا قد اسودت فى عينيك ؟ ولم كل هذا الأسى يغمر قلبك ونفسك ؟

لشدما آلمنى أن أراك فى رسالتك الأخيرة صريع هذا التشاؤم الذى لا يليق بأهل العلم ، فأنت بكفايتك تستطيع أن تشرّق أو تغرّب فتجد الرزق الحلال والمكان المرموق ، ولا عليك فيما يعاملك به الرسميون من قومك ، فقد قيل فى محنة مشهورة : ليس لنبى فى وطنه كرامة ...

وأن مثل النظام الذى تعيش فيه ، لا يمكن أن يأذن لحر أن ينال حقه إلا إذا باع له حريته ، أو يسمح لكفء بالتفوق والامتياز إلا إذا جعل من خده موطئاً لنعاله ، وأنت بتاريخك وعلمك ومؤلفاتك قادر على أن تشق طريقك فى أى مكان يحترم العقل والعلم ، ويدرك مقام اهل الرأى وأصحاب البصيرة من العلماء والمفكرين .

يا صاحبى ، ليس وطناً هذا الذى يعيش فيه المواطن غريباً معرضاً للقتل والسجن والتشريد لأتفه الأسباب . . وكل حظيرة بعده جنة من الجنان !...

أرجو ألا تستعجل قضاء الله فيمن أساء إليك ، فإن عدل الله آت لا ريب فيه ! وانتقامه موقوت بميعاد . واحذر أن يهن منك العظم أو تخور بك العزائم ، فما من سلطان ظالم فى الأرض إلا وله جبار عادل فى السماء .

وأقص عليك أبلغ القصص لتشيح بالسواد عن عينيك ، وتطرد الحزن من قلبك ، وتصرف الأسى عن نفسك .

كانت قصة الإقطاع فى نفاقستان أشبه بقميص عثمان !.

قالوا أول عهدنا بهم،إنهم جاءوا ثائرين على الإقطاع ، فآمنا بقولهم وإن كان لفظ « الإقطاع » لا يعنى ما أرادوه، فما كان عندنا ليس إقطاعاً بل كان ظلماً فى توزيع الأرض ، وظلماً فى حيازتها،وظلما فى استغلالها فقضى بفضلهم على هذه الألوان من الظلم جميعا ، أما الإقطاع بمفهومه العلمى فشىء آخر تعرفه العصور الوسطى وتشرحه الكتب فى آلاف الصفحات .

وصودرت الأطيان ووزعت على الفلاحين ، وسر خاطرنا لعدالة الثوار الثائرين ، وإن كان التطبيق قد شابه بعض المظالم ولم يخل من عبث العابثين .

وبعد اربعة عشر عاما من قيام ثورة الأحرار قال مشيرهم إن الإقطاع باق فى بعض مدن الريف ، وهو ليس إقطاع أرض . بل هو إقطاع فى نفوس بعض المواطنين الذين لا يزالون يؤمنون بآدميتهم، ويعتزون بكرامتهم ، ويشغلون مكانة فى نفوس الناس ، ولا بد من تحطيم بقية مالهؤلاء القوم من عزة نفس وشمخة أنف ، فليس لغيرنا — نحن الحكام — حق فى رأس مرفوع أو قول مسموع !

وكلف زبانية أولئك الطواغيث بتنفيذ ما اعتزموا من ظلم جديد ،

فاقتحموا البيوت بليل ، واعتدوا على الحرائر وهن فى لبـــاس النوم، ونافسوا قطاع الطرق فاستولوا على مافى البيوت من مـــال ومصاغ ، وطردوا أصحابها إلى الطريق العام ومن بينهم مرضى ينازعون الموت وقيل إن الزبانية ارتـكبوا بعد ذلك آثاما ضجت لها السماء ،فاستعجلت القضاء ، فنزلت بنا الهزيمة النكراء .

وكانت كارثةالهزيمة ، أم الـكوارث، فشدهت الظالمين والمظلومين على السواء ، وتريثالطغيان ليأخذ أنفاسه ، بيد أن الجبار كتم أنفاسه فدب الخلاف بينالرءوس من الطغاة ، فمات بعضهم فجأة فى مناخلازال فى أمره حائرين ! وحوكم بعضهم وسجنلما قيل عن خيانات ارتكبوها فى ساحة الحرب وأدت إلى العار الذى كنا فيه ، ووقعت للبعض حوادث فى الطريق العام أرملت نساءهم ويتمت أولادهم ، وقيل، وفقد بعضهم بصره بلفتة من المنتقم الجبار فى علاه .

ياصديقى: إن ربك لبالمرصاد لمن آذىالوطن فىسمعته أواقترف الآثام فى حق أبناءالشعب المسالمين .

سبحانك ربى ، تمهل ولا تهمل ؛ تمد الباغى حتى ليخيل إليه أنها دامت له وحده ولن تصل إلى أحد من بعده ؛ ثم تهوى به إلى مقـــام الحشرة فى دنياه ، وتعد له من عقابك فى آخرته ماهو قمين بما ارتـكب من جرائم وشرور .

وكى يطمئن قلبك يا صديقى لحسن الخواتيم ؛ عرضتلك ماعانيناه

فى نفاقستان . وقد عشنا موجة الظلم العاتية حتى انحسرت بإذن الله. ولكى أكون منصفاً فى وصف الحال . فإن هذه الموجة لم تنحسر فحسب بل جبّها مناخ جديد . نقلنا من أحراش الحيوان إلى عالم الإنسان . من عالم يسوده الرعب إلى عالم يوحى بالطمأنينة . من عالم كان القوى يمضغ فيه الضعيف إلى عالم يسوده القانون فيطاول فيه الضعيف القوى بلا خوف أو رعب ، عالم ينال فيه القزم حقه من عملاق ! ...

إنك تشعر بالقرف مما يدور فى شقاقستان ، وتقول إن الهزل يسود دوائرها بالتهريج وإطلاق الشعارات وبتنظيم الحملات على كل قديم ، سواء كان القديم تماساً من خيرة الناس ، أو عملا تشرف به الأجيال لما انطوى عليه من صالح الأعمال .

إنك لو عشت أيامنا الأولى من الثورة فى نفاقستان لذهب عقلك من كثرة ما عانينا من النفاق والتهريج والتضليل واللعب بالشعارات ، فقد أرادوا أن يصوروا للأجيال الصاعدة أن أمة ولدت ولم يكن لها من قبل تاريخ ... كل ما سبق الثورة جهالة وظلم واستغلال ! مع أن من أذاع بيان الثورة هو نفسه دليل على أن نفاقستان كانت تنبض بالحيوية والثورة قبل أن يعرف واحد من هؤلاء الثوار .

نعم لقد أرادوا أن يزوروا التاريخ ، يزوروه حتى على الملايين من الأحياء الذين عاشوا هذا التاريخ ، فكتبوا وخطبوا زاعمين أن نفاقستان بالثورة قد ولدت ولم يكن لها من قبل تاريخ ؟ ! ! . . .

أرادوا أن يصوروا النخبة القديمة للأجيال الصاعدة عبيداً جهلاء تنقصهم الشجاعة وينقصهم الفهم والإدراك ، وهم يعلمون علم اليقين أن نفاقستان كانت تزدحم بالأحرار والمفكرين وأصحاب الرؤى الثاقبة حتى أنه بعد عشرين عاما حققت الثورة ما تطلع إليه أحرار العهد القديم من أمان وأحلام ، ألم يقف نائب من نواب الأمة يدعو إلى قصر الملكية الزراعية على خمسين فدانا ؟ ألم يقرر حزب الأغلبية أن يكون التعليم حقاً لكل مواطن كالهواء والماء ؟ ألم تهاجم الصحف الحرة فساد الجيش وفساد أسلحته حتى زج بأصحاب هذه الصحف فى السجون والمعتقلات ، وحتى رتبوا لواحد من أعلام الصحافة وله فى تاريخها مقام مقدور ، رتبوا له عصابة ، لتقتله فى الطريق العام ، فقد آذتهم حملته على الأسلحة الفاسدة ، وخشوا أن تثير هذه الحملة جنود الجيش وضباطه ، وهو ما حدث آخر الأمر وترتب عليه قيام الثورة وتغيير النظام .

إن كثيراً مما فعلته الثورة كانت تضطرب به نفوس أهل نفاقستان قبل أن يثور ثائر وفى يده سلاح ...

ثم ماذا ؟

إن أعلام المفكرين قبل الثورة من أدباء وعلماء ومهندسين وصحفيين لا يزالون حيث هم فى جبهة الحياة وصدر المسيرة ، وقد حاول المنافقون والمتزلفون من هذه الفئات أن يقصوهم عن مواقعهم ومقامهم ، ففشلت المحاولة لأن النفاق لا يمكن أن يخلق من الحمير أياعر ؟ ! ...

ثم ماذا ؟ حتى المغنى والطرب ، والدق على الطبلة والنفخ فى المزمار ، لا تزال مقدراته فى الجيل القديم ، يقود ويعلم ، ويخلق ويبتكر وعلى مشاعله تحبو البواكير كى تشغل عند اللزوم المكان ...

إن الثورة المنتجة الذكية هى التى تأخذ من مفاخر الماضى وأمجاده دعامة ترتكز عليها فيما اعتزمت من أمور .

إن هتلر ، وهو الثائر المجنون ، كان عاقلا حين ألقى مهام السياسة الخارجية إلى ريبنتروب الدبلوماسى العتيق وأحد أساطين السياسة فى العهد القديم ، وألقى أمور الاقتصاد والتصنيع إلى كروب وغيره من عتاولة الصناعة والاقتصاد فى ألمانيا من عشرات السنين، ولو قدر لهذا المجنون العاقل أن يترك شئون الضرب والنزال لأهل الضرب والنزال ، ولم يفرض أسلوبه الفطير على ميدان الوغى ، لكان حال بلاده غير حالها الذى انتهى بها إلى الفرقة والتقسيم ...

إن الثورة العادلة العاقلة . هى التى تأخذ العبرة من الماضى ولا تغمط حق هذا الماضى . وهو لاشك يزخر بالحسنات وإن لم يخل من سيئات ولاشك أن سيئاته أذهبن حسناته . لذلك كان لابد من ثورة . . وجاءت الثورة على الماضى القريب وتولت البطانة بجهالة وعبط ، تجريد هذا الماضى من كل المحاسن والمكرمات ، حتى جاءت لفتة التصويب ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ يصح الصحيح .

نفاقستان فى ٢٨ أكتوبر

حدثتنا العهود والمواثيق المكتوبة أن نفاقستان بعد الهزيمة النكراء لن تعيش إلا كما تعيش الأمم الحرة ، وأن العـــدالة ستكون رائد المسؤولين فى كل ما يمس حياة الشعب ، وأن مواطناً لن يتعرض لأذى بغير حق .

ولست أدرى ماذا يقول التاريخ فى وزر الأوزار الذى ارتكبوه فى حق العدالة التى زعموا أنهم حماتها بنص من المواثيق والعهود ؟!

لقد طفح الكيل فى الظلم والطغيان ، وفساد الذمة وسوء التدبير ، حين تعرضت العدالة لعسف السلطان وغروره .

لقد أصيبت هذه العدالة بفواجع ومآس لم تشهد لها الدنيا مثيلا منذ قنن حامورابى حتى غرقنـــا فى فيض من تشريعات الأحرار الثائرين ؟ . . .

كيف كانت محنة العدالة فى نفاقستان ؟

فى يوم عابس حزين كان يجب أن تلطم فيه الوجوه وتشق الثياب، هرول شعوريان وزير الأمن والنظام إلى « المير » الساحر الخطير ينبئه بقرار صدر من قاض بالإفراج عن جماعة من الناس اتهمها الوزير بنزعاتها الطبقية وتعذيبها للمواطنين . . .

فقال « المير » : وماضرنا أن تبين براءة قوم اتهموا خطأ أو زوراً بعمل لم يرتكبوه ؟

فقال شموريان : ولكن الاتهام صدر منا ، ونحن حماة الأمن والنظام ، وكي يستقر الأمن والنظام يجب أن ينحى هذا القاضي عن منصبه ليكون عبرة لغيره من القضاة . . .

قال « المير » إني لا أحب أن تضع الدولة أنفها في أحكام القضاء .. إني أرى القضاء « كولي » القرية من مسه بسوء نزل به كثير من البلاء ؟

فاستأذن شموريان قائلاً : ولكنك يا سيد الناس تعلم أن إجازة حكم هذا القاضي ستهز النظام من قوائمه ، وتشجع الناس على احتقار الحكومة والاستخفاف بالسلطان ! ...

وتدخل وزير القصر سمشريان يعرض حلاً ترضاه ذمته الواسعة ويباركه ضميره النعسان ! ! ...

ثم قال : عندي من الرأي ما يحل القضية على النحو الذي اعتدناه .. نترك القاضي يفرج عن هؤلاء الناس ، ثم نقوم نحن باعتقالهم ، وبذلك يصبح حكم القاضي لغوا ، ويشعر الناس أن الكلمة الأخيرة للسلطان ؟ ! . . .

ولكن شموريان اعترض على هذا الأسلوب ، لا لأنه ينكره أو لأنه أبطل العمل به ، بل اعترض عليه لأن من صدر حكم الإفراج عنهم من ذوات القوم ولهم في نفوس مواطنيهم مقام مقدور ، ويخشى أن يثير ذلك ثائرة البلدة وما حولها من بلاد . .

ولكن « المير » الساحر الخطير اعترض مرة أخرى على تدخل

السلطة فى أحكام القضاء ، مذكراً وزيريه بأن ما أصابه الوطن من هزيمة نكراء كان عقاباً لما ارتكبه أمثال الوزيرين من أخطاء ، وأنه لايود معركة مع العدالة فى الوقت الذى أرقت الهزيمة حياة الناس فى كل ميدان .

وحنى شعوريان رأسه وظهره ، وبدا كأنه يسلم بما يراه « مير » البلاد ، وقال فى صوت خفيض : ياسيد الناس ، إنما أنا — إذا أذنت لى — ناصح صغير ، من واجبى أن أنفض لكم ما بنفسى ، وإن نفسى لتحدثنى بأن القضاة يأتمرون بليل ، وأن وزير العدل، وهو من اختياركم وعلى ثقتكم ، قد حاول أن يسلكهم فى الصفوف ، ويسوقهم مع القطيع ، فاحتقروه وأهانوه ، وتمردوا علينا وجهروا بالعصيان ، وتحدوا الثورة فاختاروا لناديهم جماعة تمثلهم ولا تؤمن بما نؤمن به ، بل تنقد علانية طرائق النظر فى حكم البلاد ، وتدعو إلى الحرية وما تعنيه الحرية من فساد !

واستطرد شعوريان : إن هذا الذى أحكيه لسيد النـــاس نزعات شريرة من شأنها أن تهز الأمن والنظام ، وسوف يكون تمردهم مشجعاً لغيرهم من الجماعات ، وأنت يا سيد الناس لا تريد أن يرتفع صوت على صوت المعركة ، فأخذهم بالحزم — مهما تكن محنة البلاد — ضرورة من الضرورات . .

ثم انحنى الوسواس الخناس وصعر خديه قائلا ...

والأمر آخر الأمر لسيد الناس :

وراح « المير » الساحر الخطير فى تفكير عميق ...

ثم صدر قرار بإعادة « تنظيم القضاء » أو « تطهير القضاء » أو قل تجربة جديدة للظلم والعدوان ، وفى هذه المرة كان الظلم والعدوان على قدس الأقداس .

واقتضى « تنظيم القضاء » فصل جميع القضاة والمستشارين ثم إعادتهم إلى وظائفهم بعد يومين من الزمان ، تعطلت فيهما المحاكم ، وعاشت نفافستان اليومين بلا قانون !

واستبعد « تنظيم القضاء » نخبة من خيرة القضاة والمستشارين على رأسهم قاضى القضاة ، وهم جميعاً من الصفوة التى تفاخر بها البلاد ...

وكانت هذه المذبحة وصمة عار ، عار لم تجرؤ عليه سطوة المستعمر الذى جثم على قلب نفافستان زهاء ثمانين عاماً يعبث بمقدراتها كما يشاء إلا القضاء ، فقد تحرج أن يطوف بساحته أو يعترض على حكم صدر ، أو يزكم بريحه ، تلك الأنوف الشماء ، ولكن البطانة الفاسدة الجاهلة المؤذية استطاعت أن تقتحم هذا الحصن المنيع الذى استعصى على السلاطين والملوك وقوات الاحتلال ...

ويمضى عام واحد وتظهر كرامة « ولى » القرية فيجىء « مير » جديد ، ويرث « المير » الجديد التركة المثقلة بالظلم والفساد . فيرد القضاة والمستشارين إلى مناصبهم الرفيعة ، ذلك لأنه يعرف قدر القضاء ويعرف مقامه العظيم فى حياة الأمم والشعوب ، ويعرف أن شعباً يعبث بقضائه شعب غير جدير بالحياة .

تفاقستان فى ١٥ نوفمبر

لقد فاضت عيناى بالدموع ، وإنها لدموع فريدة ، فلا هى دموع حزن على فقيد عزيز ، ولا هى دموع فرح لحبيب أثير !

إنها دموع الرهبة والخشوع ، والسعادة بالإيمان الذى يملأ القلب والنفس والعقل جميعا ...

لقد رفعت رأسى من سجدتها وأنا وسط الآلاف أؤدى معهم فريضة الصلاة ، فإذا الناس يرفعون رءوسهم مثلى ، ورأيتهم إلى جوارى، وفى مواجهتى ، ومن خلفى،وهى المرة الأولى التى أرى الناس يصلون فى دائرة، ويواجه بعضهم بعضا ، فعرفت أننى فى بيت الله الحرام ، وأن الكعبة التى يتوجه إليها الناس خاشعين، حاضرة تملأ العين بجلالها، والحمام يطوف بها ولا يعبرها، كأنه يصلى معنا ، وكأنه تطهر مثلنا ، فلا تسقط منه حاجة، أو يفلت من فمه شىء ، ولا يصدر عنه صوت فيشوش على الإمام وهو يؤمنا ويتلو من كتاب الله بعضه،وهو يقف منتصباً مكبراً والله أكبر، ثم ينحنى يسبح بربنا العظيم .. ثم يسجد ذاكراً الله جلت قدرته فى علاه ، ثم يعلن أنه سبحانه وتعالى قد سمع لنا بعد أن حمدناه ...

وإذن ، فأنا فى بيت الله الحرام ،حيث شرفت الأرض بخطى إبراهيم ومحمد عليهما السلام،وهنا ركضت سارة بين الصفا والمروة حتى تفجرت زمزم، وهنا بدأ الإسلام ، ومن هنا انتشر ، وهنا آمن الناس بالواحد الأحد، وهنا أكمل الله على الناس دينهم ثم دخلوا فيه أفواجا ، ورفعوا

عليه أجيالاً بعد أجيال ، ومن هذا الوادى القحط الفقير، بزغت أنوار الحق وقضت على دول الكفرة والملحدين ، وأغذت السير شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً ، حتى كان اسم الله يذكر على مآذن المسلمين من المحيطات الشاسعات إلى بحار الهند والصين .

وطوفنا بالكعبة سبعاً ، وهرولنا بين الصفا والمروة سبعاً، ودعونا الله أن يغفر لنا ذنوبنا وإنه لغفور رحيم .

وما من بقعة فى هذه البلاد الشاسعة إلا وآثرها الله سبحانه وتعالى بمكرمة . فأنت إذا انتقلت من أم القرى إلى المدينة فسوف ترى النور يحيط بقلبك وعقلك ونفسك ،حيث المقام الطاهر لنبي المسلمين عليه الصلاة والسلام،وحيث تعتز المدينة المنورة بجهاد سيد المرسلين الكفرة والملحدين وحيث امتحنه الله فى النصر والهزيمة ، فشكر ربه حين انتصر، واستعان به حين هزم ، فإذا هو بالفئة القليلة يسحق أعداء الله على كثرتهم ،ومن هنا خرج العدل والشرف والرجولية والكرم والحرية والإخاء والمساواة وغير ذلك من معالى الأخلاق ومعانى البر والخير والمعروف .

واستقام حال المسلمين أجيالاً لتمسكهم بأسوة محمد العظيم ، فلما مالوا عنها مال عليهم الزمن بالهزائم والتأخر والعار، وتفرقوا فلا عاصم لهم من وحدة ، ولا رباط بينهم من دين، فقد خف دينهم حتى أصبح كالغلالة على قلوبهم ، وغُشِّيَت أبصارهم عن رؤى الماضى المجيد، وأصبحوا كما ترى ، خلواً من العلم الذى سوده الله وأعلاه ، ينقصهم الإيمان

الذى يشدهم إلى السماء فيرفع هاماتهم فى دنياهم وفى آخرتهم على السواء .

كم أنا حزين لبعدك عن هذه الروحانيات التى تملأ الصدور بالنور وتكشف مسالك الطريق ، فأنت مشغول بالنزال فى أكثر من ميدان ، تكافح النهازين المنافقين ، من أهل العلم فى شقاقستان ، ويالضيعة العلم حين تنزل خصومة العلماء عن الخسة والدناءة ، وتخلو صراعاتهم من فضائل العلماء ! وتنازل نظاماً جباراً حرمك التحرك إلى يمـــين أو يسار ، ووقف دون هجرتك لتسعى فى أرض الله التى وسعت الملايين، وضاقت فى وجه واحد من الأحرار .

ويزعمون فى شقاقستان أنهم مسلمون ؟ ولعمرى فإنه لإسلام يبيح المعاصى ، ويزور المحاسن ، ويسمح بشنق الخصوم وذبحهم وسحلهم بلا تحقيق أو استجواب .

لك الله ياصاحبى .. فما نعرف اليوم شيئاً من هذا فى نفاقستان وحتى فى الأيام السود ، أيام سمشريان وشموريان ، كانت الجرائم ترتكب فى خفر وعلى استحياء ، وكانت موجاتها تنحسر ويطول انحسارها ، وكان « المير » الساحر يأذن لأكثر الخصوم بأن يسعوا إلى رزقهم فى نفاقستان أو فى غيرها من بلاد الله فى كل مكان .

والله إنى لفى عجب ! .. إن كل ثورة قامت فى الدنيا ، قامت باسم العدالة والحرية ، ومامن ثورة إلا وافتقدت فيها العدالة والحرية ! فامض معى منذ ثار كرومويل إلى الثورة الفرنسية إلى ثورتكم القريبة ، تر صورة

تتكرر ، ينقلونها من إطار إلى إطار ، ولا يغير من معناها سواد الليل أو وجه النهار .

وما أحب أن يفزعك هذا الذى أنتم فيه ، فكل شىء كما زعمت لك من قبل له نهاية قصر الزمان أو طال ، فإن بعض الثورات كثورتكم تبدأ حمراء ، وهى أشبه بالثور ، يثيره اللون الأحمر فيزداد شدة وحدة ، كلما لوحت لها بالدم غرقت فيه إلى أذنيها ، وهكذا تمضى الأمور حتى يصرع الثور أو يصرع مثيره ، فتهدأ الثورة وينتهى النضال ويسود السلام .

إن من نعم الله أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش عمره كله ثائراً ، فلا بد أن يهدأ ، وكل ثورة هى من صنع إنسان ، ولا بد أن تأخذ الثورة أى ثورة ـ من طبع هذا الإنسان ، فتتأمل وتنام ، وبذلك يعود السيف إلى غمده ، وتصبح الثورات ذكرى ، وتقيم بما خلفت من حسنات وشرور .

لك الله ياصاحبى . . إن ثورتكم لفريدة بين الثورات ، قد استمر لهيبها فأثمر يتامى وأيامى ، وحطم ودمر ، ولم تستطع أن تطفئه بعد أمطار الشتاء .

وإنه لعجب أن يعيش الناس وقد خلت قلوبهم من الحب والرحمة ، ولكن كيف يحب الناس ويرحمون وقلوبهم تزرع فى هذه الأيام ؟! . .

نفاقستان فى ٣٠ نوفمبر

لست فى خلاف معك أيها الصديق ، فأنا أرى رأيك فى أن العبرة ليست فى صيغة المواثيق الضخمة والقرارات المثيرة التى تصدر عن الحكام والمسؤولين كعهد منهم مكتوب يلتزمون به قبل شعوبهم وأوطانهم ، وإنما العبرة فى تطبيق ما تضمنته هذه القرارات والمواثيق تطبيقاً سليماً لا مجافاة فيه للعدل والحق ، ولا غرض فى تفسير بنودها على النحو الذى يعبث بروح العهود المكتوبة ويجعلها قصاصات لا تستحق ما بذل فى كتابتها أو طباعتها أو زفة الإعلان عنها فى الصحف والمجلات أو فى المرئيات والإذاعات .

وقد صدر فى نفاقستان شىء من هذا ، أرادوه « ماجناكارتا » ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وهذا الشىء الذى صدر هنا تضمن فصولاً فى الحرية والعدالة والمساواة يضئول حيالها « ماجناكارتا » الإنجليز ، وهو الاتفاق المشهور فى إنجلترا بين ملكهم ونبلائهم الثائرين على أوضاع من الظلم تؤذيهم وتؤذى معهم الجماهير .

والعبرة يا صديقى فى التطبيق .

فقد نفذ الإنجليز ميثاقهم ذاك ، وأضافوا إليه تقاليد فى نظم الحكم الحرة عبر عدة قرون لم يصكوها فى ميثاق أو يسجلوها فى قرطاس ، وإنما أصبحت ممارسة الحرية عندهم تقاليد معروفة ، ومن ثم يحكم الإنجليز اليوم فى أضواء حرية لا يعرفها شعب من الشعوب ، فى إطار دستور غير مكتوب .

وعندنا صـــدر ميثاق وقرارات ، تضمنت بنودها من المعانى ما يزرى بما عند الإنجليز من عدالة وحريات ، ولكن بطانة السوء ومراكز القوى الشريرة فى عهد « المير » الساحر جعلت الميثاق والقرارات حبراً على ورق، بل جعلتها مثاراً للسخرية لا عند المواطنين فقط بل عند كثير من الجيران !

فقد قررت المواثيق والقرارات أن نتنفس من أنوفنا فى حرية كما برأنا الله ، غير أن الحواريين من مراكز القوى وبطانة السوء ، فرضوا على خصومهم أن يتنفسوا من أفواههم لتمرض صدورهم وتضعف قلوبهم وتجف حلوقهم وتعجز ألسنتهم عن الكلام ! ...

العبرة يا صاحبى بالتطبيق ...

وقد جاء « المير » الجديد فأقسم اليمين الدستورية فى أعطاف ما تضمنه الميثاق والقرارات ، فوجمنا ، وخشينا أن يكون ذكر المواثيق كما كان ذكرها فى الماضى ، حديث مجالس ، أو « فك مجالس » كما يقول العامة أصحاب العبر والعظات ؟ ولم يطل بنا الوقت لنعرف ما كان فى قسمه من صدق ، فقد بدأ تنفيذ القرارات والميثاق ، بما تم من سيادة القانون والإفراج عن المعتقلين السياسيين ، ومعالجة مظالم البطانة ومراكز القوى ، وغير ذلك من تطبيق لما انطوت عليه نصوص الميثاق والقرارات .

هكذا طبقت المواثيق فى عهـــد مضى ، وهكذا تطبق فى العهد الجديد ، ويرجى أن يضيف الحوار بين المواطنين جديداً من شأنه

أن يجعل تنفسنا صالحاً لا كتساب مزيد من يود البحر وأوكسجين الهواء . . .

* * *

لقد ضحكت كثيراً مما احتوت عليه رسالتك من حكايات عن نفاق الصحافة عندكم « لميركم » ومساعديه ، وأنت تبرم بهذا النفاق مع أنه فى مثل هذه النظم جدير بأن نأخذه من باب الترفيه عن أنفسنا كرطب لقسوة الحياة التى نعيشها ، ونعتبره مُلَحاً تُروى على سبيل الممازحة والفكاهة والتنكيت !...

وما أظن صحافتكم فى شقاقستان تستطيع أن تنافس صحافتنا فى براعة النفاق ، وهى عندنا لها تاريخ قديم ، وفن النفاق لا تجيده صحافة فى العالم مثلما تجيده صحافتنا فى نفاقستان ...

فى عهد الملك ، أقيم معرض للبقر ، فنشرت صحيفة المساء الأولى إذ ذاك عرضاً مفصلاً عن هـذا المعرض ، وتحدثت عن السلالات المظيمة التى ظهرت فيه ، ثم ختمت قائلة إن التطور فى تحسن هذه السلالات يرجع الفضل فيه إلى جلالة الملك !!...

حقاً إن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل ...

ولم تبرأ صحيفة عندنا من نفاق الثورة وخاصة فى أيامها الأولى ، وأذكر أنهم أعدوا مشروعاً لتحضير جزء من الصحراء ، وعلم الناس بهذا المشروع فى حملة صحفية وإذاعية ضخمة ، ونشرت الصحيفة

الصباحية الأولى صوراً لأول «مير» فى البلاد وهو يجلس القرفصاء ويبذر بذور البطيخ والعنب، وبعد خمسة أسابيع نشرت صوراً لأنواع من بطيخ الصحراء لم تعرف نفاقستان من قبل بطيخاً فى كبر حجمه، وألواناً من عناقيد العنب تشرح القلب والعين جميعاً ... ودعّنا من الأسابيع الخمسة التى أنضجت بقدرة قادر هذه الثمار النادرة ليدخل بها النفاق على العامة مُدْخَل كذب، فإن تساؤل الواعين كان يدور حول المكان الذى استوردوا منه المصور من العنب والبطيخ؟!...

ولم يقف النفاق عند هذا الحد، بل مضت نفس الصحيفة بعد أيام من نفاقها حتى بلغت ذروته فى «ريبورتاج» ظهر فيه «المير» وزملاؤه بين دجاج الصحراء وفاكهتها، وقال الكاتب «ويرى الدجاج يطير فرحاً بزيارة «المير» وصحبه»؟!...

وفى الاحتفال بعيد الثورة الأول جلس الناس فى سرادق ضخم نصب فى أوسع ميادين العاصمة، وهم نحو ثلاثين ألف مواطن فى أكثر تقدير، وقدرت صحف نفاقستان الثلاث عدد الحاضرين، فزعمت الصحيفة الأولى أنهم نصف مليون مواطن! ثم قالت الصحيفة الثانية إنهم أكثر من مليون!! وقالت الثالثة إنهم مليون ونصف مليون!!! ولو كان فى نفاقستان إذ ذاك عشر صحف لبلغ عدد الحاضرين خمسة ملايين؟...

ليست صحافتنا وحدها المبرزة فى ميادين النفاق، وإنك لتجد ألواناً

من النفاق الصحفي عند كثير من الأمم والشعوب ، وقد كانت صحافة فرنسا علماً على النفاق حين سقط نابليون ، فقد وصفته الصحف التي كانت تسبح بحمده ، بأقذر النعوت والأوصاف ، ووصمتـــه بأرذل الطباع وأحط الأخلاق ، فلما فر من منفاه قالت إن الوحش هرب من معتقله ، وحين نزل ساحل فرنسا قالت إن الكلب يدنس أرضنا من جديد وإن قوات الجيش في طريقها للقبض عليه ، فلما انضمت قوات الحكومة إليه وثبت أنه في طريقه إلى العاصمة قالت إن جلالة الإمبراطور في الطريق ... فلما دخل باريس ، قالت إن الدنيا أشرقت بعودة الإمبراطور إلى عرشه العظيم !؟ ...

وفي نفاقستان لم يقتصر النفاق على الصحافة والصحفيين بل استمتع بمناخ طيب لدى العلماء والمفكرين ...

وأذكر أن عالماً في الآثار ، وأستاذاً في الهندسة ، وأديباً مشهوراً ، قابل كل منهم الملك عند توليه العرش وهو دون العشرين من عمره ، فخرج الأول يتحدث عما استفاده من الملك من جديد في الآثار ! وخرج الثاني يزعم أن الملك حدثه في شؤون الري كما لم يسمع حديثاً مثله في عمق الفهم وأصالة التفكير ! وذكر الأديب المشهور إعجابه باطلاع الملك الواسع في آداب الأمم والشعوب ، وأن حديث الملك ولفتات ذهنه الرائعة في شؤون الحياة هزته وأسعدته ، وإنه ليدعو الله أن يحفظ جلالته ويحرسه ويحميه !!

بمثل هذا النفاق يُفسد الملوك والحكام ، وبمثل هـذا ينحرف المسؤولون عن جادة الطريق ، وبمثل هـذا تنحط القيم والأخلاق ، ومهما تكتب أنت أو أكتب أنا ، فلا أمل فى إصلاح النفوس مادامت حرية النقد غير مكفولة ، وما دامت العدالة قد عصبوا عينيها فلا تبصر الغث من الثمين ، ولا مفر من أن يكون للنفاق والمنافقين القدح المُعلّى فى مقدرات حياتنا ولو أفسد ذلك حياتنا ، وكأنك تُؤذّن — كما يقولون — فى مالطه ! وإنك لتصلى وحدك ، فليس فى مالطه واحد تؤمه أو يؤمك فى صلاة ! . . .

نفاقستان فى ٥ ديسمبر

أكتب لك بدموعى ، فاليوم استرد الله وديعته . . .

اليوم فقدت ولدى ــ أكبر أولادى ــ شهيداً وهو يؤدى أشرف عمل ، وهو يُعلّم زملاءه ويدربهم على الطيران . . .

إنه ولدى وحبيبى ورفيق عمرى ، ومن نافست أخوته لى ، أبوتى له ، ومن كنت أرجوه لشيخوخة مقبلة ، وأخت له فى مطالع العمر ، ومن كنت أحبه لنفسه وخلقه وأدبه ووداعته . . .

إنه معى ، أصبحت أو أمسيت ، وإن فجيعتى فيه ليعجز عن تصويرها قلم أو تحكيها صفحات . . .

« ربنا أفرغ علينا صبراً »

صدق الله العظيم

نفاقستان فى اول يوليو

سبعة أشهر لم أكتب لك فيها ، فقد كنت — ولا أزال — اسير حزنى على الحبيب الذى ولى وراح ، وخلف فى القلب حسرة ما أظنها تخف مع الأيام ، وإنى لأبكيه كلما مر بخاطرى ، وهو دائمـــا فى خاطرى ... ويعيبون علىّ البكاء ، فهو عندهم شعور لا يتفق وأصالة مسلم ولا يليق برجل قوى الإيمان ... ومنذ متى يا أخى حرم الإيمان بكاء الأب على ولده الشهيد ، وقد بكى من قبل خاتم المرسلين على إبراهيم وذهب بصر يعقوب على ولده الفقيد ؟

إن صاحبتى هنا تعالج أمرى ، وما رأيت فى حياتى زوجا مثلها تاسو الجرح ولو على حساب شبابها وعافيتها ، وهى ، منذ أراد الله أن يحسن ختامى بها ، إلى جوارى تطب لى فى مرضى ، وتقاسمنى الحزن فى نكبتى . وترطب من عذاب قلبى ، وتصون عرضى واسمى ، فلها الله يكل ما عنده سبحانه من جزاء عظيم فى دنياها وآخرتها .

معذرة إن شابت رسالتى آنات حزن وأنت لا تنقصك الأحزان ، وإن حزنى لحياتنا العامة زاد من همى وغمى ، وإنى أراها دائما ، هذه الدنيا ، تقبض النفس ، فإن الحال لم يعد يسعد له عدو أو حبيب ، وإنى لمشفق على هذا « المير » الذى يسوس أمورنا ، فقد نصبته أكثرية الشعب حين توسمت فيه الخير ، فأخذ يواجه من أول ساعة مراكز القوى التى

سيطرت على مقدراتنا فى عهد « المير » الساحر الخطير فأخذ يلاطفها ويداورها حتى يرد على الناس كرامتهم ويخلو من الأحرار المعتقلات والسجون ، وبذلك يسود القانون وترفع المظالم وتستقر النفوس فى الصدور .

وإنى لمشفق على الرجل . . . فقد ورث تركة أفسدت فيها الأخلاق إفساداً ، فلم يعد قدر لكبير عند صغير ، ولا وزن لعالم عند جاهل ، ولا مقام لصالح عند طالح ، ولم يعد حماس لعمل عام ، وفقد الشعب ذلك الشيء الذى يسمونه الضمير العام ، فإذا الناس نيام أو كالنيام ، وإذا المدير يقضى فى الأمور باللفظ البذىء وهو قعيد كرسيه لا يحفزه لعمل راتبه الكبير ، وإذا معاونه يشـاطره البذاءة وبلادة الحس والاستهانة بمسؤوليات الوظيفة ، وإذا الناس فى المصانع والمعامل غير مبالين ، ينافسون تنابلة السلطان ، وإذا مصالح الناس مضيعة فى شعب يريد حقوقاً لا تقابلها التزامات ، وإذا الحكومة المؤلفة من مراكز القوى منصرفة عن واجباتها تستطلع الغيب بضرب الرمل أو سؤال مندل أو فتح فنجان . . . أيهم الرئيس المقبل وأيهم سيـنتهى إليه السلطان ؟ ! . . .

وفى أى مناخ يحدث هذا ؟ يحدث هذا الهوان فى شؤون الحكم ولا أقول والعدو على الأبواب ، فإن العدو بين ظهرانينا ، يحتـل أراضينا ويترصد خططاً فالمه يصيب مكاسب أخرى من الأرض والأخلاق ؟ .

كم أنا مشفق على هذا « المير » الذى يسوس أمورنا ! فكل يوم تثار قضية لم يكن هو صاحبها أو طرفاً فيها ، بل هى قضايا صنعتها البطانة ومراكز القوى فأثقلت بكاهل الرجل وهو يحاول أن يطب لها ماوسعه الجهد ، وفى هذه التركة أمور استعصت على سلفه الساحر الخطير ، ولن يغنى فيها طب أو دواء ، إلا أنه يحاول ، وعلى المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المنال ...

كيف يغير « المير » أخلاق الناس ؟

كيف يمنعهم من الكذب والكذب ليس فى البيوت أو المصالح وحدها ، بل الكذب فيما نمضغ من طعام وفيما نستنشق من هواء وفيما نشرب من ماء ؟ ! ...

كيف يقضى « مير » البلاد على الرشوة بعد أن فشت ، ولم يعد فى إمكان مواطن أن ينال حقاً إلا إذا قدم — كما يقول أولاد البلد — حق الدخان ؟ ! ...

كيف يقضى « المير » على الغش فى الأسواق وفى البيوت وفى المصانع وفى الضمائر أيضاً ، إذا كان الغش مزدهراً فى كل مكان ؟ .

كيف يغرس « مير » الدولة حب الوطن فى نفوس الناس ، وهل يستطيع أن يفرض عليهم ذلك وقد خفت عقيدتهم ، وحب الوطن — كما يقولون — من الإيمان ؟

كيف يستطيع « مير » البلاد أن يحمى حراً عنده كلمة يريد أن يقولها ،

وفى صدره ضيق يرد أن ينفضــــه ، وفى ذهنه رأى يجب أن يعلنه ، إذا كانت أدوات الماضى لا يزال بعضها — كما يشيعون — يربض عند ساحة السلطان ؟

كيف يزيل «المير» ما فى القلوب من أحقاد ، وقد تأصلت فى كل صقع وناد ، ولم تخل حتى من قلوب الآباء والأبناء ، والإخوة والأشقاء ، إلا أن يكون ساحراً ، وحتى السحر الذى لا يدعيه الرجل عاجز عن القضاء على أسوأ ما عرف فى طبيعة الإنسان ؟

هل يستطيع «مير» الدولة أن يقضى على هذه الخنوثة التى انتشرت ليس فقط فى شعور الشباب المسترسلة ولا فى ثيابهم المزركشـــة ، بل انتشرت فى نظرتهم الرخيصة للحياة ، فأصبح لهم فى أخذ طرائقها مسالك تتسم بالميوعة ولا تليق فى زمن يلح بالجـــد والزهد لعلنا ننتصر على الحياة ؟

ليس فى مقدور «المير» أن يغير شيئاً من هذا كله ، والله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفـــسهم ، وهم لا يحبون التغيير ، فقد رضيت جبلتهم أن يبقوا حيث هم لا يتقدمون وقد يتأخرون ؟ . . .

هل مخطىء أنا أو مصيب حين زعمت لك أن دنيانا لا يسعد فيها عدو أو حبيب !

لا أريد أن تفهم أن ذلك إرث العهد الذى انتهى أو أنه شىء وضح

فى العهد الجديد ، فإن ذلك كله نتاج أجيال مضت ، غير أن بطانة المليك الراحل ومراكز القوى فى أيامه ، قد مكنت لهذه المساوىء ، وكذبت على نفسها وعلى الناس حين زعمت أن الثورة جاءت لتقضى على سوءات الماضى ووجهه القبيح ، فإذا هم بمظالمهم وطغيانهم يقضون على البقية الباقية فى نفوس الناس من مكارم الأخلاق ، وينتهجون سياسة خبيثة من شأنها أن تهدم أصالة العقول والنفوس ، وتكشف عن الغرض الذى انتووه . . .
والغرض الذى انتووه أن تكون فى يدهم أمة عارية من الأخلاق ، وبهذا — وبهذا وحده — يستطيعون أن يحكموا مواطنيهم ويسوقوهم بالعصا سوق الحمير ، أوفى أحسن الظروف سوق الحادى للبعير؟ ! . . .

نفاقستان فى ١٥ سبتمبر

معذرة إن أبطأت فى الكتابة إليك ، فأنت لاتدرى كيف نحن مشغولون فى نفاقستان ؟ . . .

أن أحداثاً خطيرة تدور عندنا وقد قلبت حياتنا رأساً على عقب ، وصرفت المواطنين — جميع المواطنين — عن كل شيء ، وهدت أعصاب الناس ، وملأت قلوبهم بالهم والغـــم ، ونفوسهم بالحسرة والألم ، وألهتهم حتى عن صلاتهم ، وزلزلت إيمانهم بكل جميل وجليل .

نعم فإن الأسواق قد خلت من القوطة !! وإن رمضان على الأبواب والأسواق قد شحت فيها لفات قمر الدين ؟ ! ...

ماذا أقول عن هذا الجيل ؟ وأين أضعه بين أجيال نفاقستان ؟

تحطم أعصابه حين يفتقد القوطة وقمر الدين !

أما أن تحرمه البطانة الحد الأدنى من حرية القول والتعبير ...

أما أن يرى أباه أو أخاه أو ذوى قرباه يحشرون بالمئات فى المعتقلات والسجون . . .

أما أن يعين واحد لم يستكمل دراسته الثانوية رئيساً للجنة الطاقة الذرية ويقبل العلماء هذا التعيين . . .

أما أن يتهم مرتش بتبديد المال العام فيعاقب بتعيينه فى إحدى وظائف السلطان . . .

أما أن يبذر واحد من أهل الثقة عشرات الملايين من الدنانير لتحضير الصحراء ولا تحضر الصحراء ! ثم يعاقب بأن تغلق عليه دائرة الانتخابات ثم يعين بعد ذلك سفيراً فى إحدى السفارات . . .

أما أن يسوقوا مسيرة الرعاع فى شوارع العاصمة تهتف بسقوط الحرية ! ! ثم يقودها حرفوش من رجالهم لتضرب قاضى القضاة فى ساحة القضاء المقدسة ، وتهتف بسقوطه وتنعته بالجهل وهو أنبغ من عرفت تفاقستان من علماء التشريع والتقنين . . .

أما أن يقوم زبانيتهم من عتاولة القمع والعسف والطغيان بتحطيم آدمية الأحرار من المواطنين بالفسق فى حرائرهم أمامهم ، وبعضهن عذارى لم يبلغن الحلم . . .

أما أن ينفخ المواطن حتى يبدو كحامل فى شهرها التاسع ليقر بإثم لم يرتكبه أو يدعى على صحبه وزملائه زوراً بأنهم يتآمرون بليل ويعدون لثورة أو انقلاب . . .

أما أن يلزموا سجينهم الشيخ وهو فى الثمانين من عمره بأن يصعد أعواد النخيل فى حديقـــة السجن المريض ! ويفرضوا عليه أن يغنى أغنيتهم الثقيلة السمجة وهو يكاد يسقط من فرط الضعف والإعياء..

أما أن يفرضوا على مواطن حر — وكان من أنبل الوزراء — أن يبقى فى ساحة السجن تحت وهج الشمس مكشوف الرأس وأطباء السجن قد حذروا من موت الرجل إن تعرض لشمس يوم حرور . .

أما أن يرى إخوانه المسلمين يصعدون إلى المشانق وبعضهم تجاوز الستين وبعضهم من الأئمة الصالحين . . .

أما أن تموء البطانة ومراكز القوى إلى « المير » الراحل الخطير فتوزع صورة الحرم النبوى الشريف عقب وفاته مباشرة ومن وراء قبتها تخيم صورة هذا « المير » وقد سجلوا تحتها الآية الكريمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ! ! . . .

أما أن تنشر صحيفة الأرقم قصيدة لشاعر من توريطستان يؤبن فيها « المير » الساحر الخطير فيحط من قدر القديسين ويرفع من قدر « المير » ، ويراه خسارة فينا وما كان ينبغى أن يكون منا وهو أعظم من الأنبياء والمرسلين . . .

أما أن يشاهدوا كيف حشر المأجورون فى القطر والسيارات ليزحموا العاصمة مقبلين من كل فج عميق ليحيوا الهزيمة صائحين صارخين . .

أما أن يروا فى الصحف نائباً فى مجلس أمتهم يرقص طرباً يوم العار والشنار وأرض الصحراء تخضبها دماء أولادنا المجاهدين وهم نحو ثلاثين ألفا أو يزيدون . . .

أما أن يحدث هذا كله ولا تهتز شعرة فى القوم ، ثم تقوم الدنيا وتقعد لاختفاء القوطة وتمر الدين ، فتلك والله شهادة « التورة » التى « يتعاطاها » هذا الجيل ولا يفيق منها إلا فى صغائر الأمور ؟! . .

نفاقستان في ٥ اكتوبر

استمعت إلى «مير» نفاقستان الجديد وهو يخطب في الناس ،فسرني أشياء كثيرة فيما قال،منها أن « المير » يتحدث على سجيته ،طبيعي لا يلف ولا يدور ، وليس في عينيه عنف ولا قسوة ، وفي حركاته بدا صورة مشرقة لأهل نفاقستان الذين لاتنطوى قلوبهم على موجدة أو تختزن في أعماقها العقد والأحقاد .

وسرني من الرجل أنه يذكر ربه ويتعلق بمشيئته كلما عرض أمراً أو انتوى عملا ، ويذكر ربه بإيمان المؤمن الواثق من عطف الله المطمئن إلى إرادته ، وقد اعتدنا أن نستمع من قبل لبعض أقرانه وهم يخطبون كآلهة ، وكانت خطبهم كلها تمضي ولا ذكرى فيها لروحانيات ، وكانت الشدة والعنف طابعها ، والوعود الواهمة تزدحم بها ، والوعيد للخصوم والأعداء سواء في الداخل أو الخارج ، يزمجر من فوق المنصات ،ونسي الزعماء الخطباء أن مامن وعد أو وعيد يمكن أن يتم إلا أن يشاء الله، وكثيراً ما كان الله سبحانه وتعالى يشاء غير مايشاء هؤلاء الزعماء.

وأعجبني في « المير » الخطيب أنه لم يند بلفظ خارج وهو ينقد مواقف الدول الكبيرة من بلاده ، بل لم تخرج من فيه عبارة جارحة وهو يهاجم خصوم بلاده وأعداءها ، وكان صدره يضيق ولا ينطلق لسانه ! وهكذا يكون حديث « الميَرة » الذين يقدرون وقار القيادة ومقامها في بلد عظيم متحضر ، لايستهدفون التصفيق وابتزاز الإعجاب من السوقة والدهماء ! .

وقد استراح صدري حين أنصتُ إليه وهو يتحدث عن زعماء الجيران، فهو يراهم زملاء جهاد، مهما تختلف أساليبهم مع أساليبه، ومهما تتباين حرارة جهادهم مع حرارة جهاده، فهو يريد منهم المؤازرة والمساندة، كل على قدر ما يحمل صدره من قوة، وعلى قدر ما في عنقه من مسؤوليات، لا يراهم توابع بل يريدهم إخوة جديرين بالتقدير والاحترام، إذا بعث لهم بسفارة كانت سفارة مودة وتآخ لا سفارة «مندوب سام» خلا من الرقة، واستبدت به الغلظة والغطرسة والقحة وسوء الأدب، كأنه سفير مكلف بامتهان كرامة الجيران ...

وأعجبني أشد الإعجاب حين تحدث عن بلدنا العظيم نفاقستان، وماضيه الزاخر بكل المفاخر منذ تاريخه السحيق ومنذ تاريخه القريب، وهذه نغمة حرمناها سنوات وسنوات، فقد كانت الخطب طبلاً أجوف، تتضمن مجموعة سخيفة من الشعارات الفارغة التي تهز العقول البلهاء، وتطرب لها القلوب المريضة، وكلها عن حاضر الوطن ومنجزات حكامه، وما كان تاريخ نفاقستان العظيم يذكر بحرف إلا في ميدان الإساءة إلى هـذا التاريخ وإلى أصحابه، وبعض أصحابه من الرواد الغر الميامين، حتى كاد النشء لا يعرف لنفاقستان تاريخاً، وأن هذا التاريخ حافل بالأمجاد التي يجب أن يعتز بها المواطنون قامت ألف ثورة أو مضى ألف جيل!..

إن في الرجل كبرياء، غير أنه خلا من التكبر والتجبر والتزمت والحقد والغرور ...

وقد لاحظت فى خطب هذا « المير » إصراره على تنشئة المواطن على العلم والإيمان وعلى بناء الإنسان قبل التفكير فى بناء المصانع ، فإن ألف مصنع لاقيمة لها إذا قام على خدمتها إنسان لاعلم له بما يقوم على خدمته ولا إيمان فى قلبه ينير له الطريق ، فسوف تكون مصانع يرعاها عبيد، وما من عمل أنتج وأفاد إلا وكان وراءه أحرار يعون ويفهمون ...

إنه يريد من كل مواطن أن يكون جندياً فى موقعه ، وأن تكون الحرب بيننا وبين عدونا الضئيل حرباً شاملة ...

وأفهم أنا مما يعنيه « المير » أن يحمل كل مواطن سلاحه لمواجهة العدو المغير، وأنه لا ينبغى أن تكون المعركة للجيش وحده ، فإن الجيوش قد تنتصر وقد تلحقها الهزيمة، وهزيمة الجيوش لا تعنى أبداً هزيمة الشعوب، وفى التاريخ أكثر من مثال على ما أعنى وأقول .

لقد انتصر نابليون على دول أوربا ، واحدة إثر أخرى، فقد هزمت جيوشها جميعاً أمام جيوشه، ولكنه حين أراد أن يخضع الأسبان والروس لسلطانه ، لم يواجه جيوشاً نظامية اصطفت لقتاله ، بل وجد نفسه بين شعبين يحارب كل فرد فيهما ، وقد حمل المواطنون جميعاً السلاح لمواجهته، وهنا حاقت به الهزيمة النكراء ، بل كان تورطه فى حرب الشعوب نهاية لانتصاراته الخرافية ، وقضاء على جبروته وطغيانه ، وبذلك تخلصت الدنيا من آثامه ، واستردت دول أوربا حريتها حين حارب عنها شعبا الروس والأسبان ...

ونحن أيضاً حاربنا حرباً شعبية حين نزلت جيوش ملك مسيحى متعصب بلادنا ، فأرّقنا جنده ، وخطفناهم ، وذبحناهم ، حتى فتّ فى عضده ، وأسر هو نفسه ، ولم يكن فضل النصر لجيشنا وحده بل كان الفضل الأول للمجاهدين من أفراد الشعب الذين دوخوا جند العدو حتى أصبح لا يدرى من أين تجيئه الضربات ، وحتى عجز عن ملاقاتها وهى تصيبه مرة فى صدره ومرة تأخذه من قفاه ...

وفى الحرب العالمية الأخيرة ، مضت جحافل هتلر تكتسح دول اوربا وتسوق جيوشها إلى العار والتسليم ، حتى جاءت هذه الجيوش مدينة ستالنجراد كما كانت تسمى فى ذلك الحين ، وهنا توقف المد النازى فلم تجد جيوشه جيشاً نظامياً لتهزمه ، بل واجهت شعب المدينة يحاربها من شارع لشارع ، ومن حارة لحارة ، ومن عطفة لعطفة ، ومن زقاق لزقاق ، ومن بيت لبيت ، ومن حجرة لحجرة ... وإذا بالجيش الجرار الجبار يتجمد من عنف المقاومة ، وإذا الجيش الذى لا يُقهر تقهره إرادة شعب فى مدينة ! ... وإذا هو يرتد خاسراً مدحوراً ...

هل نحن جادون ؟

إن الفدائية وحدها قادرة على النصر شريطة أن تكون هذه الفدائية أسلوب الشعوب جميعاً فى منطقتنا ويومئذ لن نكون فى حاجة إلى طائرات ومدافع وصواريخ بقدر حاجتنا إلى سلاح فى اليد يحمله عشرات الملايين ، نصيد به مليونين من حرافيش القوم التائهين ؟! ...

وتسألنى كيف نصيدهم وبيننا وبينهم عوائق وسدود ؟

يا أخي ؟

السفوا الجبال والتلال لينفتح إليهم الطريق ...

اردموا القنوات والأنهار ليسهل إليهم المرور ...

لنذهب إليهم فإنهم لن يجيئوا خشية أن تمضغهم كثرتنا ، فلنذهب نحن إليهم بهذه الكثرة حتى نصليهم ناراً من سعير ...

وتسألني كيف نحمي مدننا من طائراتهم، فقد يهدمونها وتفقد هذه المدن بهاءها وجمالها ؟

يا أخي

فليهدموها، فسوف نعيد بناءها من جديد، ونبني معها جيلا لا يعرف الخوف ، ونبنيها بالدم الغزير والعرق الكثير ...

فليهدموها لنخرج منها فنسترد أرضنا ونمحو عارنا ..

يا أخي

لقد هدمت في الحرب العالمية الأخيرة لندن وبرلين ، وبنى المنتصرون لندن، وحتى المهزومون بنوا برلين ...

لقد حرق الروس بأيديهم عاصمتهم ودمروا عمائرها وآثارها وتحفها ، وقطعوا مياهها ، وسمموا ماشيتها وأفسدوا طعامها ، حتى إذا جاءها نابليون كانت قاعاً صفصفا ، فافتقد الدفء ، وعضه الجوع، وبهرته الفدائية، فارتد عبر البرد البريد والجو الثليج ليموت جيشه في الطريق ... ثم ينتصر الروس ويبنون مدينتهم من جديد ...

يا أخي ؟

ليست مدنكم بأجمل من موسكو ولندن وبرلين ...

ثم ماذا ؟

ونحن أيضاً ،في منطقتنا ، نملك ضعف ما يملكون من طائرات...
إنهم بطائراتهم سيواجهون مائة مدينة ومدينة ، ونحن بطائراتنا سنواجه في بلادهم مدينتين أو ثلاثا ، وبشيء من (الفدائية) ننتحر بمائة طائرة أو بمائتين أو بخمسمائة وندمر مدنهم الثلاث ...
وبذلك تنتهي قصتهم لا إلى حين بل إلى أبد الآبدين ...

يا أخي ؟

هذه هي الحرب ، وهذا هو الجهاد ، ولن تنتصر الشعوب أبداً بالخطب والمقالات والأغاني والأناشيد ...

وتسألني كيف نحقق هذا الجهاد المرير ؟

إن ذلك يقتضي الثقة بنفوسنا ...

ثم يقتضي الإيمان بالقيم الروحية ...

ثم يقتضي اتحاداً شاملاً بين الجميع ...

ثم يقتضي نبذ الترف حتى يتم النصر المبين ...

ثم ماذا ؟

ثم يقتضى قبل ذلك ، وفوق ذلك ، أن يحس المواطنون الفدائيون المجاهدون أنهم أحرار حين يرون فى الأمور رأياً ، فلا يخشون سجناً أو معتقلاً أو اغتيالاً بليل أو مصادرة لقلم !

صدقنى يا صاحبى ، إن النصر سهل وميسور ، لو ألصت القوم بالمودة إلى ما أعنى وأقول ...

فهل هم منصتون ؟ ...

يوم العبير

أرأيت ياسيدى « المير » الطيب النبيل كيف كان شذا اليوم المشرق العظيم ؟

أرأيت ياسيدى «المير» الشجاع الكريم كيف ملأ مواطنوك الدنيا بريحهم الزكى فى يوم العبير حتى أسعدوا أنوف الأصدقاء ، وغاظوا من فقدوا حاسة الشم من الأعداء ، وتحدثت الدنيا عن هذا العبير الصاق يجىء من ضفاف نهرنا العظيم أزكى من الورود وأمتع من الرياحين ؟

أرأيت ما فعل مواطنوك فى ذلك اليوم المقدس ، فأعطوا أرواحهم بسماح وحملوا رءوسهم على أكفهم ، واجتاحوا الهول الذى أخافونا به ، وحذرونا منه سنوات وسنوات حتى كنا من عار تلك السنوات نطأطىء رءوسنا وننكر جنسيتنا ، إلى أن قررت فى شجاعة الشجعان أن تطلق الشذا الطيب، وحملت الأبطال مسئولية توزيع العبير الذى فاق شذاه الرَّنْدَ والياسمين ؟

أتعرف أسباب النجاح « ياميرنا » الطيب العظيم

إنها نسمات الحرية التى بدأتها بعصرك « الجيل ...

إنها العدالة التي أنقذت الأحرار من المعتقلات والسجون ...

إنها الإنصاف الذي رد الحقوق لذويها بعد أن طالت إجازة القانون ...

مزيداً من الحرية أيها « المير » الطبيب العظيم ... فقد تحتاج يوماً لأن تغزو بمواطنيك القمر ، ولا تُغْزَى الأقمار إلا بالأحرار الذين لا يعرفون الأصفاد والسلاسل والقيود ...

أتعرف بمن تذكرني أنت ؟

أنت تذكرني بأحمس حين طرد الهكسوس من مصر ...

أنت تذكرني بقطز حين ذاد عن البلاد والدين وهزم الأعداء في عين جالوت ...

إنك ثالث ثلاثة يعتز بهم التاريخ عبر آلاف السنين ...

مزيداً من الحرية أيها « المير » الطبيب العظيم ...

ودعنا نمجد بطولتك ، فهي واقع ملموس ، واسمح لنا أن نكفر ببطولة الهزائم والعار ، وإلا استوى الطيب والخبيث ، وأصبح النور والظلام عند الناس سواء ...

مزيداً من الحرية أيها « المير » الطبيب النبيل العظيم ... إنك لتعلم كما نعلم لِمَ لحقت بنا الهزائم وطوانا العار ؟

كان أولادنا وأولادك يحاربون بالأمس البغيض ، ووراءهم أب

مسجون، أو أخ مقروح ، أو قريب معتقل، أو صديق خُرب بيته بالمعنى الدقيق لتخريب البيوت ، وكانوا يحاربون ومنهم من قَطع رزقه وأبعد عن عمله أو دُمر عمله ، أو أدب فى حجرات التعذيب ! وبذلك كله ذهب أولادنا وأولادك للحرب وهم يعلمون أنهم بالنصر سيمكنون الظلم والعدوان ، فحاربوا بلا هدف ، ولن ينتصر محارب غريب فى وطنه أو قل شهيد فى وطنه ...

كيف كنا نرجو النصر فى الأمس البغيض ، والمحاربون يعلمون أن النخبة الواعية فى بلادهم تنزل السجون والمعتقلات ، أو تقصف أقلامها بغلظة وشراســة ، أو فارّة تهيم على وجهها بعيداً عن الوطن ومن فى الوطن من الأهل والصحب والأعزة من الأبناء الصغار ؟! ...

كيف كنا وكيف أصبحنا ؟

كانت بلادنا منــذ مائة عام ملجأ الأحرار من أوطان الجيران، يفرون إليها من ظلم وقع فى بلادهم فيجدون الحرية وينشئون الصحف ، ويؤلفون فرق التمثيل ، ويتاجرون ويعملون ، ثم انقلب الحـال ، وأصبح أحرارنا بعد مائة عام يهربون إلى بلاد الجيران خشية أن يساقوا إلى الذبح والســلخ ، حتى جاء « عصرك » فرد الروح إلى النـاس ، وبدأ الأحرار الفارون من أصحاب الفكر والقلم يعودون إلى تفاقستان ، حيث فطر الله التفاقســتان على

المودة والمعروف ، وجعلها فى العالمين موطن الأعزة والكرام . . .

مزيداً من الحرية أيها « المير » الطيب النبيل العظيم . . .

أريد أن أراك « ميراً » بالانتخاب لا بالاستفتاء . . .

أريد أن أرى نفاقستان روضة غناء تتعدد فيها الورود والرياحين ! . . .

أريد أن أرى الناس يأكلون ما يحبون ، ولا يجبرون على طعام واحد ولو كان ديكة رومية أو ما فى مرتبة الديكة الرومية من طعام !! . .

أريد أن أرى الأقلام الحرة البناءة تصطرع ، فقد آذتنا الأقلام التى فرضت علينا ولا تجرؤ على كلمة الحق تقولها ، أو لعلها لا تعرف كلمة الحق لتقولها ! . . . .

لن ينسى لك الجيل إنصافك « للتوأم » ، فهما من عمد صحافتنا ومن ألمع العاملين فى حرمها ، وإن الفرحة التى غمرت أهل الفكر والرأى ، لا تُرد إلى تحرير واحد من سجنه ، وعودة الثانى من منفاه ، وإنما كانت فرحة أهل الرأى والفكر للمعنى الذى انطوت عليه يدك ، والقرار الإنسانى الذى أملته مروءتك . . .

مزيداً من الحرية أيها « المير » الطيب العظيم . . .

لا تزال هناك أسرة لها فى تاريخ الصحافة تاريخ ، شردتها الطغمة

الباغية ، فمات رأسها منفياً ودفن جثمانه فى بلد « حبيب » ولا يزال الواحد منهم فى المنفى وهو أيضاً علم من أعلام صحافتنا ، فأكمل فى هذا الميدان فضلك ، ورد الغائب إلى الحلبة ، فإنها مشوقة إلى هؤلاء الفرسان بعد أن سوروها وقصروها على حملة الطبول والمزامير ! ...

مزيداً من الحرية أيها « المير » الطيب النبيل .

إن قلبك الأبيض الذى خلا من العقد والأحقاد ... والذى لا يضيره أن يعيش مواطنوك كما تعيش ، وإن « عصرك » الأبيض الذى جعلته تراثاً لنا ... إن هذا البياض فى القلب والعصر سوف يلهمك السداد فتصل بنا إلى ما نحب ونريد وأفضل ما نحب ونريد هو الحرية — حتى نستطيع فى ظلها — أن نحكى للجيل وأجيال مقبلة بطولتك وشجاعتك ، ونقص عليهم نبلك وأصالتك ، ثم نشى بك ، وبما فعلت « العذاب الذى عشناه دهراً ، ونمحو بك وبما فعلت تزوير التاريخ ببطولات مزعومة ، وشجاعات موهومة ؟ ! ...

أيها « المير » الطيب النبيل ...

أنا لا أنافقك ، فليس لى عندك حاجة ، فمنذ زمان بعيد بعيد شغلت أرفع المناصب ، ومنذ زمان بعيد بعيد ، وأنا أرشق على صدرى بما كتبت وألفت وعملت ، النياشين والأنواط ، حتى لم يعد فى صدرى مكان لنوط أو نيشان جديد ...

ليس لى عندك حاجة أيها الأمير ، الطبيب الشجاع العظيم ، فإن أى عرض فى الدنيا مهما يكن قدره ، أرانى فى قدرى أعلى من قدره ، ولا أحب وأنا أختم حياتى أن يقول تلاميذى يوماً ... هـذا الرجل علمنا أن السلطان من بَعُدَ عن السلطان ، ولـكنه فى أخريات أيامه أغراه السلطان بيد أو صلة ، فحق عليه هو أن يتعلم ؟!!

نفاقستان فى ١٥ اكتوبر

عزيزى تيشيان

لقد سرنى أن استقر بك المقام فى « وردستان » حيث البحر والجبل، وحيث حرية الفكر والعمل، وإنك لابن بجدتها القادر على أداء الواجب مهما يشط بك المزار ...

وقد سرنى أن هجرتك إلى وردستان لم تترك فى قلبك حفيظة لبلدك « شقاقستان » وأعجبنى فيك أن ترى المنطقة كلها شعباً واحداً كما تقول، كل بلد منها يعيش فى إطار، ولنا أن نختار، وقد اخترت أنت وردستان واخترت أنا أن أبقى حيث عاش آبائى وأجدادى فى نفاقستان، وأن أصبر على عهد الذل والطغيان إلى أن انزاح هذا العهد وانفتحت الحياة الفتاحة الأحرار.

وقد أسعدنى أن تنشىء فى وردستان هذه الدار العظيمة للنشر والطبع والتوزيع، وإنى لواثق أنك بعلمك وأستاذيتك ستحسن اختيار المطبوع الذى يليق بأن يصدر عن دار لنشر تعتز بإشرافك عليها، فسوف تهدف مطبوعاتها إلى تثقيف أبناء وطننا الكبير، وكشف المخبأ من العلوم والمعارف، والعناية بتراثنا وتراث سائر الأمم والشعوب.

إنك تريد أن تنشر رسائلى التى تلقيتها منى فى كتاب، وتريد أن تنشرها فى وردستان، لأنك تخشى أن يساء الظن بها فى وطنى هنا فتتعرض للمصادرة، وقد يساء لصاحبها فيساق إلى السجن أو يضار فى رزقه أو يناله مكروه من هذا أو ذاك؟! ...

ويبدو أنك لم تع رسائلى ، أو لعلى لم أحسن العرض والبيان وأنا أصور لك المناخ الذى نعيشه اليوم فى نفاقستان ، فنحن نعيش فى حالة من سيادة القانون ، ولم تعد الأمور فوضى فيؤخذ بتلابيب الحر إذا اعترض على رأيه السلطان ، وإن سيادة القانون لا يمكن أن تسود وتعيش معها المعتقلات والسجون ...

نحن هنا فى موجة انفتاح ، انفتاح فى طرائق النظر إلى الحياة ، سواء كانت هذه الطرائق اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ، وهو انفتاح ليس بينه وبين بلوغه الذروة قيود أو عقبات ...

إن الكتاب الذى بين يديك ، وهو مطبوع فى نفاقستان ، ويضم مجموعة رسائلى إليك ، يوزع اليوم فى كل مكان ، وتلك وثيقة حية تبطل مخاوفك ، وتؤكد أننا نعيش حقاً فى ظل حرية تؤكدها سيادة القانون ، وأن نفاقستان لا تزال — فى المنطقة — بلد الحرية والمساواة ...

وطوبى لمن يقر فى نفوسنا الأمان ...

وطوبى لمن يُعلن الحقيقة لتضىء وتبهر ...

وطوبى لمن يحطم اللاتَ والعُزّى وسائر الأصنام ...

وطوبى لمن يبارك هذا كله ، فهو إنما يبارك الحرية التى افتقدناها دهراً من الزمان ، وهو إنما يبارك حقاً مباحاً لكل مواطن يجب أن يؤكد ويصان .

ألم أذكر لك فى رسائلى ، أننا نعيش اليوم فى دولة حرة كل من فيها أحرار ؟


Bibliotheca Alexadrina
0231210